دراسة تمهيدية حول مدى الوجود الاسلامي

في شبه القارة الهندية

===============

أ ـ وجهة النظر الاسلامية

لعبت الجغرافيا دورا هاما في تشكيل تاريخ شبه القارة الهندية رغم أن التسجيل الجبال الواقعة في شمال شبه القارة قامت بدور مزدوج حماية السهول الخصبة في الشمال من رياح سيبيريا الباردة وعزل هذه السهول عن أي تأثير قوي من جانب الاجناس المغولية • والجبال الشماليه الغربية قامت ايضا بحماية وادي السند على ان هذه الجبال الشمالية الغربية لها من طبيعة التكوين ما يجعلها ممكنة الاقتحام من خلال ممراتها ـ اذا لم تكن هذه الممرات تحت الحراسة او الحماية اليقظة . اما الشمال الشرقي لشبه القارة • فهو محمي حماية طبيعية كما انه في الوقت ذاته معرض للتأثيرات الخارجية عن طريق ممراته • غير ان هذه الممرات في هذا الجانب سمحت دائما بهجرات سلمية وتوغل لبعض العناصر ولكنه لم يصل الى مرتبة الغزو • اما المناطق الشرقية من شبه القارة فانها كانت بعيدة كل البعد عن تلك التغيرات القوية التي تعرضت لها مثلا مناطق آسيا الوسطى والغربية كذلك لم تنجب شرق آسيا أي من الفلاسفة الذين هزوا العالم بأفكارهم وكذا فان شبه القارة الهندية كانت معزوله عن العالم الى الحد الذي تمكنت فيه من تأليف وحدة جنسية غير انها لم تكن منفصلة تماما عن العالم • فبالرغم من ارتفاع الجبال التي تحد شبه القارة وضخامتها الا انها كانت تعرف في خلالها معابر وممرات من الممكن اقتحامها وعبورها وبشكل عام يمكن القول ان الغابات الكثيفة على الحدود الشرقية والمياه المتجمده في التبت والصحارى الجبليه القاحلة في بلوجستان وما وراءها كل ذلك لا يشجع على هجرة من أو الى • ولقد اسهمت الممرات الموجوده في الجبال الغربية في منع أي اتصال مع باقي اجزاء

القارة الاسيوية • ولذ. حماس المبشرين وطمع التجار وحبكة الفاتحين الغزاه تمكن ذلك كله من وقت لآخر في التغلب على هذه الصعاب الطبيعية •

. هذه الظروف والعوامل جميعا أدت الى ان سكان هذه المناطق ــ الذين جاءوا اليها من مناطق أشد صعوبه يستسلمون الى سحر مناطق اكثر دفئا وأقل جهدا في اساليب المعيشة وهذه التسهيلات في حد ذاتها كانت عاملا مهما أسهم في تشكيل وتطوير مدنية مبكرة في هذه المناطق وقد نمت الافكار في هذه المناطق بنفس السرعة التي تنمو الغابات اي الغابات الاستوائية هناك زودت الانسان بصورة حسية للجمال ــ أقصد بعيدة عن الصورة العقلية الخالصة • لم تزود هذه البيئة انسانها بقدرة أبدان الناس او موضوعي في الرؤية لايمكن ذلك والغابات بكثافتها هي المؤثر والمسيطر وهكذا كان الامر بالنسبة لنمو الافكار • فالافكار كثيفة ومختلط بعضها بالبعض فالخرافات تختلط بالروحانيات والتأمل يختلط بأشياء مخالفة واقترحت الفلسفة بالاساطير ولم تكن هذه البيئة تشجع على الاطلاق نمو التفكير المنطقي الواضح ولا على فرض الحدود العقلية على الفكر ولا على الاساس والتوحد ما بين الفلسفة والاخلاق والتصور •

ورغم كل ذلك فان للغاية قانونها الاساسي في التوحد • فان الاشجار والنباتات والاعشاب كل ذلك يزدهر في الغابة لان الظروف هناك مواتيه وملائمه لذلك الازدهار والحياه فبعد ان تعرضت المملكة النباتيه لفترة من الكفاح قتلت قوانين الاختيار الطبيعي تلك النباتات التي لم تتمكن من الكفاح او الصمود امام مصاعب البيئة •

والفكر الهندي ــ رغم نزعة التأمل غير المنظم فيه ورغم ثرائه بالتنوع والاختلافات أصبحت له شخصيته المميزه وأصبح يدور حول عدة افكار مثل انقسام السكان الى (فارنا س ــ طبقات) ومثل قانون الكرمات ــ Karma) ومثل الاعتقاد

فى تناسخ الروح ومشروعية الحياة بحسب العرف الاجتماعى وقد يكون من الممكــن ان يجد الانسان شيئا مشابها لتلك النماذج والافكار فى اى مكان آخر — ومنـذ العهد . ولكن ليس بمثل ذلك التحديد القاطع ومثل تلك الضرورة للتنظيم الاجتماعى ومثل هذا الاعتقاد القوى فى هذه الافكار ومثل هذه الصلابه فى ممارسة هـــذه المعتقدات ان اى مجتمع نمت فيه نزعات التفكير التأملى واعتاد على الاختلافات فـى المعتقدات والاراء لايمكن ان ينتج اى عقيده تجمعه معا . ورغم ذلك فقد كان على هذا المجتمع ان يظل دائم البحث عن وسيلة تآلف ومزج وعلى ذلك فقد نمى هـــذا المجتمع فى كيانه نزعه تجاهل الاعتقاد ونزعه المطالبة بضرورة الحياة حسب العرف الاجتماعى .

وهذا فى حد ذاته يمثل أهم الملامح التى تميز المجتمع الهندى وقـــد سمح هذا ايضا باستيعاب سريع للعناصر الاجنبيه التى لم تكن معها اى اعتقـادات قوية منظمة او راسخة فى نفوس افرادها . واصبح من الطبيعى ان يساير مثل هـــذا الاجنبى طابع الحياه الذى يجد نفسه يعيشـه ولم يكن هذا يعنى أى شـــىء بالنسبة لمثل هذا الاجنبى يصيبه فى معتقداتـه . انه على اقل تقدير يستطيـــع ان يعيش فى المجتمع الهندى — كخلية حية — خليه متوحدة مع الكيان الاكبـــر ولكن ليست فانية فيه — او طائفه داخل تحالف من الطوائف الاخرى المماثلة .

ولقد أستغل الهنود البحر فى القديم فى اغراض التجارة ولكن تدريجيـــا اصبح الخوف من فقدانهم الانتماء العقائدى الى طوائفهم المختلفة يمثل عقبــــة فى استغلال البحر وهكذا قلت استفادة الهنود من البحر وقلت بالتالى اتصالاتهـم بالعالم الخارجى . وكنتيجة طبيعية لذلك اصبح احتقار الاجانب نزعه بارزه فـى الهنود . ان المجتمع الذى قسم نفسه الى طبقات مميزة بشكل جامد لا يمكـــن له ان يرحب بالاتصال باى عنصر اجنبى وكلمة (يافانا) وهى مشتقه من كلمة ايونيـــا

وصف بها الهنود اليونانيين عندما جاءوا الى الهند • ثم وصفوا بها كل الاجانب بعد ذلك كتعبير من تعبيرات الاحتقار والاشمئزاز • وفيما بعد سمى الاجانب باسم (القذرين) وهذا لانهم لم يتبنوا العرف الهندوسى بالنسبة للمأكل والمشرب وعدم المخالطة •

وفى نطاق شبه القارة الهندية توجد اختلافات كثيرة جغرافية ومناخية فأحواض السند والجانج سهول خصبة طينية ؛ وهضاب البنجاب وشندهايا وساتبورا واراقالى تنسم الارض ولكن بدون حدود او حواجز واضحة او مؤثرة وهضبة الدكن مغلقة ومحاطة بهذه الهضاب ولكنها ليست بمستحيلة على الغزو والنفاذ سواء عن طريق جيوش محاربا و هجرات سلمية والغابات الكثيفة التى ظلت موجودة حتى نهاية القرن الثامن عشر — وحيث لا يوجد اى حواجز كبرى — لم تشجع اى حركة اتصال الا عبر طرقها المحددة • هذه الموانع الجغرافية منعت الامتزاج القوى ولكن بدون ان تمنع التوحد الجنسى ذاته • هذه الموانع خلقت تنوعات واختلافات تتغير باستمرار ولكن فى حدود اطار موحد عام • وحتى الى اليوم فان هندوسى منطقة من المناطق يمكن ان يتصلوا بهندوسى اقليم آخر ولكن — فقط — عن طريق اللغة الانجليزية والادبية •

وليست الجغرافيا وحدها هى التى أنتجت كل هذه الاختلافات ان سكان شبه القارة يمثلون مجموعات جنسية متباينة اختلطت هذه المجموعات واقترحت فى منطقة ولم تختلط او تمتزج فى اخرى •

والسكان الاصليون امتزجوا تقريبا فى كل مكان مع غيرهم • فقط فى بعض المناطق الجبلية لا يزالون حتى اليوم منعزلين ومميزين وقد امتزج المغول بالسكان فى مناطق الجبال الشمالية وايضا فى البنغال وآسام • والجنوب الى حد كبير ينتمى الى العناصر الدرافيدية • وهذه العناصر قوية كذلك فى البنغال • وتبرز هذا العناصر

كذلك بالقرب من دلهى • وفى غرب باكستان سيطرت العناصر الآريه رغم اختلاطها العناصر السثية • وقد صبغت العناصر الدرافيدية الجنوب بلغتها • واسهامهم فى الفكر الهندى يعتبر الآن فى غاية الاهمية رغم انه الى الان لم يقيم التقييم السليم ومن المعترف به الان ان العناصر الدرافيدية كانت عناصر ذات حضاره وذات نزعات للترحال والسفر • فقد بنوا مدنا منظمه بشوارع جيده ومبانى للصرف وخزانات للمياه • وكانت لهم علاقاتهم التجاريه ببعض البلاد الاخرى • ولم يكن الآريين عندما ظهروا على مسرح احداث شبه القارة بمثل هذا المستوى من الحضارة ويبدو انهم تعلموا كثيرا من الذين اخضعوهم • وعلى ذلك يمكن القول ان تنوع الفكر الهندوسى ان هو الا من اسهام العناصر الدرافيدية •

وفى تصوير العلاقة بين الآريين والدرافيديين يرى البعض ان كريشنا ذو اللون الاسمر الغامق ـ وهو المؤلف المشهور للكتاب (بهاغافاد ـ جيتا) ومعلم البطل (ارجونا) والذى يعبد الان على انه حلول الله ـ هو تشخيص للحكمة الدرافيدية التى ترى ان الدرافيدى الاسمر يقود الذراع القوى للبطل الآرى ذو اللون الفاتح •

وكل من العنصرين (الآرى والدرافيدى) أسهم بدلوه فى تلك الخرافات والاساطير والفلسفة المعقدة • وفى غياب عقيدة منطقية منظمة وموحدة فقد كان من الصعب استئصال هذه التناقضات رغم ان هناك بلا شك عدد من المؤثرات تعمل على خلق نوع من الانسجام والتوازن والتوحد •

وفى الوقت الذى ظهر الاسلام على مسرح الاحداث فى الهند حدثت تطورات كثيرة :

ان الاحتقار الذى ابداه الهندى (للأجنبى ـ يافانا) لم يمنعه من تلقى التأثير اليونانى وقبوله فى مجالات عدة • لقد سيطرت البوذية على شبه القارة

ثم ما لبثت ان تدهورت ثم وصلت الى دور الاحتضار والجينية — وهى أقل انتشارا من البوذيه — كانت هى الاخرى تفقد كثيرا من المؤمنين بها تحت تأثير البرهمية ذات النزعة العدوانية ، ولكنها قاومت التدمير النهائى والفناء .

وبعد انتصارها التام فى الشمال تمكنت البرهمية من تحويل نشاطها نحو الجنوب حيث التحمت فى حرب شديدة الضراوة ضد الجينية ومن وقت لآخر ضد بقايا البوذية وقد تمكنت البرهمية قبل ذلك من احراز مركز السبق نتيجة تقوية نفسها سياسيا .

وكان للعرب مراكز تجارية على الساحلين الغربى والشرقى وقبل ميلاد الرسول كان العرب أنفسهم مشركون وعابدون اصنام وكان اهتمامهم قليلا بالمناقشات الدينيه التى كانت تجرى حولهم ولكن تعاليم الرسول أمدتهم بحياة جديده وأيقظتهم على صحوة من الحقيقة الدينية . وكان مركزهم فى الهند مرموق . كان عددهم قليل لخلق أى سوء منهم او سوء قصد نحوهم . صحيح انه سياسيا مضى بعض الافراد العرب الى مركز الصدارة والسلطة ، ولكنهم كمجموع لم يكن لهم شأن يذكر وعاش العرب فى بحبوحة من العيش وثراء وحظيت طيبه بالجميع .

ان الهندوس — كما لاحظنا — قد حرموا على انفسهم الخوض فى التجار لأسباب تتصل بعقائدهم وعرفهم الطبقى . وبهذا الشكل احتكر العرب تجارة المحيط الهندى واعتبروا حلقة الوصل وحاملوا التجارة الاجنبيه من الهند . ركون العرب كثير من الثروات . وغابات المجاورة للساحل يمكن ان تزود العرب بالاخشاب اللازمة لبناء سفن اسطولهم التجارى . والسلع الهندية كانت مطلوبة فى بقاع كثيرة . وقد حمل العرب هذه السلع من الهند واوصلوها الى بلاد العرب والى ساحل افريقيا الشرقى من ناحية والى جزر الملايو والصين من ناحية اخرى . سيجلب العرب كثيرا من عجائب الاشياء من الذهب والفضه والماس فى مقابل سلع الهند .

وعلى ذلك فان الحكومة العربية حاولت بكل طاقتها ان تخلق العلاقات الطيبه مع حاكم سيلان (سرى لانكا) الذى بادل الحكومة العربية نفس المشاعر ولقد حدث ان مركبا كان يحمل هدايا من ملك سيلان الى الخليفه العربى (او قيل الى الحجاج حاكم العراق) وقع فى قبضة القراصنة الهنود بالقرب من تاتسا Thatta

وكان القراصنة قد تعرضوا من قبل للمراكب العربية الا ان حاكم السند لم يكن قادرا — او ربما لم يكن راغبا — فى قطع شأفة هؤلاء القراصنة بالرغم من الاحتجاجات العربية الكثيرة • وهكذا نفذ صبر العرب • وكان نتيجة هذا الاحتكاك الحربى بين الطرفين

وقد تم لمحمد بن قاسم الذى تولى الحملة التأديبية من تنفيذها بنجاح تام تم ضم السند التى كانت تشمل تقريبا كل باكستان الحالية الى الامبراطورية الاسلامية • هذا الغزو خلق مشكلة اساسية للمسلمين فيما يتعلق بوضع كل من الهندوس والبوذيين من وجهة النظر الاسلامية وفى هذا الشأن تم التوصل الى حل يتسم بالتحرر واعتبر اهالى السند فى مثل وضع أهل الذمة وتحت الحماية الاسلامية •

وكان أهالى السند احرارا فى عبادتهم واعترفت قوانينهم وترك فى ايديهم يقومون على تنفيذه • بل واستخدمتهم الحكومة كموظفين وترك فى ايديهم ادارة الايرادات وهذا بدوره أدى الى خلق طبقة من أشتهرت تحت اسم (العمال) (مفردها عامل) وأصبحت طبقة هندوسية لها أهميتها فى تصريف شئون هذه الايرادات مهمة للغاية لانها أعطت التفوق فى تصريف شؤون الاقاليم الهندية لحكام المسلمين الذين أتوا بعد ذلك •

على ان بعض مؤرخى الهند وسند بالغوا فى الاهمية الحضارية لغزوة بن القاسم فهم يرون ان العرب قد (تحضروا) نتيجة احتكاكهم بالحضارة الهندوسية عقب الغزو • وهذا الرأى كما نرى يعزو حضارة العرب الهندوس وهو أمر مبالغ فيه ان كثيرا من العناصر الحضارية عند العرب ارجاعها بدون شك الى اليونانيين والرومان والبزنطيين اكثر من ارجاعها الى العلوم الهندوسية التى كان تأثيرها على العرب محدودا •

وحتى فى مجال الفلك ـ حيث كان الهند وس على جانب كبير من التفوق فان المسلمين اخذوا فى هذا المجال من اليونانين اكثر مما اخذوا من الهندوس . وكذلك فى مجال الفلسفة والطب والرياضة والعلوم وحتى فى المبادئ الاساسية للفكر السياسى اخذ العرب اكثر مما اخذوا من فلاسفة ومفكرى اليونان . وبدون شك لم يغلق المسلمون على أنفسهم بساب المعرفة مهما كان مصدرها . فهم مثلا اخذوا عن الهندوس علم الارقام والاشكال . ولم يكن غزو العرب للسند هو الوسيلة الوحيدة التى جمعت بين العرب والهندوس . فان اتصالات العرب بالهند كانت أقدم من ذلك وحتى فى منطقة السند نفسها كان العرب يعيشون فيها حتى قبل الغزو .

ومن وجهة نظر الاسلام فان اهمية الفرد العربى للسند ينحصر فى الحقيقة القائلة بانه لاول مرة يقوم فى هذه المنطقة حكم اسلامى وتخضع المنطقة للحكم الاسلامى .

وايضا لان غالبيه السكان كانوا من البوذيين الذين كانوا كارهين طغيان الحكم الهندوسى فان العرب لم يجدوا صعوبة فى كسب هؤلاء السكان الى صفهم بسرعة وقد شاهد الحكم الاسلامى فى السند كثيرا من المفاجآت أو ربما نقول كثيرا من احوال المد والجزر ولكن ليس هناك اى شاهد على قيام ثورة أو تمرد هندوسى او بوذى فى المنطقة وهذا دليل بارز على قدرة العرب لجعل حكمهم مقبولا وناجحا ودليل آخر على ذلك هو ان غالبية السكان هناك قد تحولوا بالتدريج الى العقيدة الاسلامية .

ثم الغزو للسند فى بداية القرن الثامن الميلادى وقد قام حكام السند المسلمين بعدة غزوات حربية بعد ذلك داخل شبة القارة الهندية غير ان هذه الغزوات لم تكن دائمة على ان السند نفسها ظلت دائما وبشكل أساسى خاضعة للحكم الاسلامى . اما الدفعه الاخرى الجديدة فى مسار الفتح الاسلامى للهند فقد جاءت من اتجاه آخر فان (سبكتجين) حاكم غزنه احتك بجاره الهندوسى (جيبال) . وقد ورث محمود (ابن سبكتجين) عقب توليه الحكم بعد ابيه هذا الصراع مع الهندوس .

وقد نجح محمود في حروبه ضد الهند وس وتمكن من اخضاع منطقة البنجاب • وبعد و ان سياسته كانت تهدف الى اخضاع البنجا ب واقامة دولة تابعة حول ممتلكاته الجديدة وقد اكتشف محمود ضعف الممالك الهندوسية وقاد حملات كثيرة ضد الكثير منها مما تمكن به من جلب كثير من الثروات والمهابة ايضا •

وقد أتهم محمود بأنه (مخرب وناهب) وانه لم يكن مهتما بتشييد امبراطورية بقدر ما كان النهب والسلب على ان هذا الرأي مبالغ فيه •

ان والد محمود كان يهدف الى حماية ممتلكاته من هجمات الأسرة الهندوسية الحاكمة والمجاورة وهذا اد ى الى قيام صراع عنيف بين الطرفين وكان على محمود ان يستحوذ على الاراضي الهند وسيتجه بذلك نحو الغرب • وتقوية مثل هذه الامبراطورية كان أمر يستلزم وقتا واضحا للاراضي الواقعة وراء منطقة البنجاب • ان تاريخ السيد قد أوضح ان ان حملة حربية ناجحة لم تكن تأتي بنتائج دائمة • وعلى ذلك فقد قرر محمود بحزم ان يضم الى ممتلكاته البنجاب ويقويها ويجعل من قوته قوة يهابها جيرانه الهند وس بما لكهم وقد نجح محمود في هذا السبيل بشكل يدعو الى الانبهار لان البنجاب نتيجة لهذه الجهود اصبحت جزءا دائما من العالم الاسلامي الى الحد الذي نرى فيه انه عندما فقد أنساله غزنه فان لاهور استمرت جزءا من الممتلكات الغزنوية وهكذا يمكن القول ان غرب باكستان قد اصبح جزءا من العالم الاسلامي ببداية القرن الحادي عشر وأصبحت لاهور واحدة من أشهر العواصم الاسلامية في العالم وفي لاهور تم احياء التقاليد الحضارية الغزنوية الى حد كبير • ويمكن وضع شعراء لاهور من امثال ابو الفرج روني وسلمان سواجي في مصاف كبار الشعراء الفارسية •

ومن اهم الملامح في النشاط الادبي الجديد كان انتاج اللغة الهندية على يد رجال الادب في النشاط الاسلامي وهذا قد وضع - وبما بشكل غير متعمد - اساس حضارة جديدة وايضا امة جديدة اذ ان استيعاب المؤثرات المحلية ادى الى تشكيل مسلمي شبه القارة الهندية وبروزهم كوحدة حضارية مميزة ومتماسكة •

المرحلة التالية من مراحل التوسع الاسلامي تم بعد قرنين تقريبا ، في القرن الثالث عشر الميلادي .

فقد تمكن معز الدين محمد بن سام (الذي استولى على لاهور من ايدي تشبال الدين ابن آخر حكام الغزنويين) من السيطرة على اجزاء كبيرة من شمال الهند .

وفي هذه المرحلة من مراحل التوسع الاسلامي دخلت البنغال ايضا تحت السيطرة الاسلامية . فان محمد بن بختيار الخلجي تمكن من غزو البنغال بعدد لا يزيد عن ثمانية عشرة فارس . فقد ظن الحاكم الهندوسي ان هذا العدد المحدود من الفرسان مقدمة لجيش اسلامي كبير لا قبل له بمقاومته . وهكذا فر من قصره وهكذا يمكن لنا من هذا المثال ان نتصور كيف كانت سمعة المسلمين الحربية التي بمجرد العلم بها كانت قوى الهند و من المعنوية تتبعثر وتختل .

وبينما كان جيوش المسلمين في شمال الهند يتبعها النجاح من ميدان لآخر شاهد العالم الاسلامي الشرقي عاصفة من التدمير والخراب . فان المغول بقيادة جنجيز خان وبدون مقدمات للعالم الخارجي او انذار - كانوا قد اكتشفوا مواطن الضعف في الحضارة السائدة في عالمهم المعاصر واكتشفوا ايضا قدرتهم على تحطيم هذه الحضارة وقد قامت الابحاث الحديثة بحل لغز سر قوة المغول خاصة سر المقدرة التنظيمية التي تمتع جنجيزخان وقدرته الحربية التي بدونها لم يكن ليقدر على تحقيق انتصاراتها الحربية المتوالية ومما لا شك فيه ان معظم الدويلات الاسلامية كانت قد وصلت الى مراحل ضعف وانحلال الا ان حجم الانتصارات المغولية كان كبيرا للغاية . لقد تم للمسلمين فتح شمال الهند منذ عهد قريب مما يؤيد ان المسلمين كانوا لا يزالون في حالة نشاط وان الدماء في عروقهم لم تجف بعد ولم يكن جنجيزخان - رغم عظمته كفاتح - بفارس يتحلى بصفات الفروسية . فانه هو اتباعه وقواته كانوا كالعاصفة يحطمون كل شئ في طريقهم ولا يبقون على شئ ولا يحافظون على مبادئ اخلاق في تعاملهم مع اعدائهم . وكانوا قساة غلاظ القلب لم يحترموا عمرا ولا جنسا

وكان تعطشهم للدماء مثيرا وحادا فقد كان المحاربون وغير المحاربين يصيبهم القتل بدون تمييز ولقد كان غزو المغول مثل سورة الانفجارات ، أعمى في تحطيمه ولقد كان المغول ذوي عادات دنيئة وكانوا قذرين ولا تهمهم حتى نظافة مأكولاتهم وكان ينقصهم الذوق والعفة ولم يكونوا يحترمون عهدا او وعدا .

هؤلاء هم الذين حطموا الامبراطورية الاسلامية التي بنيت بكثير من العرق والتضحيات والمشاق في قرون وهكذا تحطمت كثير من المباني العظيمة واحرقت المكتبات وخربت المدن ونهبت الثروات لم يكن الامر هزيمة شعب ولكن كان تحطيم حضارة فقد تم تدمير مجموعات سكانية بأكملها وحطمت نشر من نظم الري والزراعية التي اقامها المسلمون لري الاراضي الجرداء وتدمر بهذا الشكل اقتصاد منطقة عظمى وحل الجهل والفوضى محل العلم والحضارة وباختصار فان هذه الضربة التي وجهت الى المسلمين في الشرق تركتهم خاضعين وكساحى وهكذا اصاب المغول من المسلمين جرحا عميقا لم يتمكن المسلمون من الشفاء منه الا ببطء شديد وبشكل جزئي .

الا ان سلاطين دلهي المسلمين تمكنوا من صد العاصفة فلقد وصلت جيوش المغول مرات عديدة الى ضواحي دلهي وكان الضغط من الشمال الغربي شديد الوطأة هذا بدورة ادى الى يقظة وتنبه شديدين من المسلمين في شمال الهند وانعكست هذه اليقظة وهذا التنبه على حياة مسلمي شمال الهند ففي الحكم لم يسمحوا بوجود اشخاص ضعاف ولم يتسامحوا في تمرد او ثورة وهذا يفسر لنا توالي رجال اقوياء على عرش دلهي قاموا بحفظ الامبراطورية في وقت الخطر وهكذا يمكن القول انه بشكل غير مباشر اسهم المغول في تطوير الحضارة الاسلامية في الهند فقد اتجه كثير من العلماء والمهندسين ورجال الحرف الذين هربوا من وجه الخراب والتدمير المغولي — الى الهند . وقد لعب العلماء بالذات — نتيجة اهتمام البلاط بهم — دورا بارزا . وهؤلاء (اللاجئون) احتلوا مناطق كبيرة من دلهي وغيرها من المدن منذ عهد (بلبن) احد سلاطين دلهي وجعلوا من دلهي واحدة من أشهر مدن الشرق حضارة وازدهارا .

وثانت دلهى مثالا احتذى فى عواصم الاقاليم المختلفة وفى هذه العواصم نمت وازدهرت كذلك اللغات الاقليمية فالادب البنغالى ازدهر منذ بتشجيع ورعاية ملوكنا المسلمين، وحتى فى دلهى ذاتها ازدهرت المحلية وهى الهندية والشاعر الشهير أمير خسرو الذى يعد من اعظم شعراء الفارسية استعمل فى شعره كثيرا من الكلمات الهندية بل وكتب بعضها شعرا بالهندية • وقد اصبحت نماذجه الشعرية فيما بعد مثالا يحتذى على يد شعراء مسلمين اخرين مثل ملك محمد جيس وكبير وعبد الرحمن خان خانان وعندما تحقق الهندوس من ان معرفة الفارسية ضرورية للالتحاق بالوظائف الحكومية اقبلوا على تعلمها • ومجىء عهد السلطان اسكندر لودى تمكن عدد كبير منهم من استيعاب الفارسية وقد كان هذا التجاوب بين الهندوس والفارسية هو الذى دعى الامبراطور اكبر - فيما بعد - الى الغاء نظام مسك الدفاتر الثنائى (احدهما بالفارسية والاخر بالهندية) وتبنى نظام موحد باللغة الفارسية فقط •

ومرور الوقت تمكن الهندوس من انتاج مؤرخين وكتاب وشعراء ذوى شهرة فى الفارسية •

وهكذا ساعد اهتمام المسلمين بالهندية وشعبية الفارسية بين الهندوس على خلق ونمو لغة مشتركة هى الاردية التى يعنى اسمها لغة المعسكرات على ان الاعتراف بها كلغة ادبية جاء فى وقت متأخر وغالبا مايشار الى الاردية على انها الهندية نظرا لقيامها على اساس من قواعد الهندية • وهذا ما جعل المسلمون الاوائل يعتبرون الاردية هندية مكتوبة بحروف عربية وليس تبنى الحروف العربية بشئ غير عادى اذ ان عديدا من لغات الهند مثل البنغالى وحتى التاميلى والتيلوجو كتبها المسلمون بحروف عربية وبازدياد الامتزاج والتداخل الحضارى نجد ان كثيرا من الكلمات العربية والفارسية والتركية قد دخلت الاردية ومرور الوقت صارت الاردية مميزة عن الهندية ليس فقط فى الحروف بل كذلك فى تراكيبها وهكذا اصبحت الاردية مختلفة فى مفرداتها وتعبيراتها وأخذت بمرور الوقت روح اللغة الفارسية عندما استعملها المثقفون المسلمون والهندوس على السواء كوسيلة التعبير عن افكارهم الشعرية وصارت الروح الاسلامية هى المسيطرة على

الاردية واختلفت بذلك عن الروح المسيطرة على الهندية .

ومن الجدير بالذكر ان عددا كبيرا من كتاب الهند ومن كتبوا شعرهم بالاردية ليس فقط في هذه الايام الاول بل ايضا في عهد السيطرة البريطانية وحتى عهد قريب . وهكذا كان تطور الاردية يمثل بحق روح الامتزاج الحضاري بين كل من المسلمين والهندوس ويمثل رفض الهندوس لها فيما بعد على رغبتهم في البعد عن تراث مشترك .

وعقيدة الاسلام عقيدة تتمثل فيها البساطة والعقلانية عقيدة تتطلب من معتنقيها ايمان تام بدون غموض وبقدر ما كان الاسلام مصرا على أمر هذا الايمان بقدر ما كانت الهندوسية غير مبالية به والاسلام يمثل مجموعة من القوانين الاجتماعية ونموذج اخلاقي وعرف سلوكي وهذا كله كان يخالف مثيله الهندوسي . والاسلام ينادي بالمساواة بين الناس وهذه الفكرة معارضة تماما للمفهوم الهندوسي الذي يقسم المجتمع الى (طبقات) عقيدة الاسلام لاتعاني من أي نزعه تمييزية او نزعه كراهية ضد الاخرين واختلافات الجنس واللون في الاسلام اختلافات عارضة لاصلة لها بالعقيدة وليس لها أهمية على الاطلاق . اما في الهندوسية فهذه الاختلافات هامة وحيوية اذ ان نظام (الطبقات) قد قام ليحمي (الفارنا) اي اللون — وهو محط فخر المنحدر الآري خلال العصور المتعاقبة وهكذا كان على العقيدتين ان تجد نفسيهما ذات يوم في صراع وصدام وكان لكل من العقيدتين سلوك مختلف وسلوك الاسلام ايجابي وعقلاني في موقفه من الحياة وللاسلام تنظيم ديمقراطي يجذب اليه المضطهدين ويقوم عن طريق مفهوم العدالة نزعة الاضطهاد عند اصحاب السلطان وقد نجح الاسلام بشكل كبير عندما كان مجال الاضطهاد كبير ولقد كان سكان وادي نهر السند مضطهدون على يد البراهمة ولذلك تحول هؤلاء المضطهدون نحو الاسلام كمنقذ لهم ثم بعد ذلك اعتنقوه . ومثل ذلك الامر في البنغال حيث كان غالبية الناس من معتنقي البوذية الذين اضطهدهم الهندوس وهكذا تفني أهل البنغال لان المسلمين اخذوا بثأرهم وهذا الشعور بالجميل تحول الى اعجاب بالعقيدة الجديدة وتحولت البنغال الى مركز اسلامي حصين . ولقد هاجم مبشرو الاسلام الهندوسية

بدون هوادة وهاجموا المعتقدات الخرافية المنافية للعقل والتي كان ينادي بها الايمان الهندوسي التي ينتمي اليه افراد الطبقة الدنيا هذا الايمان الذي وصل الى مرتبة الشرك • وهاجم المسلمون بالذات النظام الاجتماعي المتمثل في نظام (الطبقات) •

ولقد أخذت الهندوسية في البداية على غرة وكانت تقريبا مسلوبة السلاح او القدرة على الدفاع • لقد رأت الهندوسية ظهور ديانات اخرى من بين ظهرانيها مثل البوذية والجينية ولقد انتهت البوذية تقريبا من ارض الهندوسية نتيجة حركة تآكل وتميع مستمرة في البداية كانت البوذية لينة الجانب مع الهندوسية ومعترفة بها • ولكن بعد ذلك خضعت الـ (هينايانا) الى الـ (ماهايانا) التي استوعبت كثيرا من عناصر الهندوسية الى الحد الذي زالت فيه كل العقبات في سبيل استيعابها في الهندوسية • ثم انغمست تماما في الخرافات وفي النهاية انتهت وتدمرت نتيجة التبشير والوعظ واحيانا نتيجة الاضطهاد • اما الجينية فقد ابدت حيوية اكبر وكان لابد من الاضطهاد لاخمادها وفي النهاية كسبت حصانة لنفسها وذلك بقبولها ان تصبح كطائفة من طوائف الهندوسية معترفة بذلك بالنظام الهندوسي الاجتماعي رغم احتفاظها بكثير من عناصر عقيدتها ونظمها • وهناك عدد آخر من الديانات والعقائد اضحت نيانها في كيان الهندوسية او انتهت تماما •

اما بالنسبة للاسلام فقد كان الوضع يختلف فالبوذية والجينية قبلا كلاهما مبادئ الفلسفة الهندوسية (كرما) التي تقوم على اساس تناسخ الروح - دورة المولد والمولد المتجدد - وان الحياه بعد التناسخ لابد ان ترتبط بسعادتها او بشقائها نتيجة اعمال الروح السابقة وفي الحقيقة فان هاتين الديانتين - مثلهما مثل الهندوسية كانتا تهتمان بشكل اساسي بمشكلة المولد والمولد الجديد • كل ذلك كان يشابه اساسيات الهندوسية • ان الاختلافات كانت اختلاف في الدرجة وليس في التكوين وعلى عكس ذلك كان الاسلام مهتما بالدرجة الاولى بالله وعلاقته بالانسان ونتيجة لذلك اهتم الاسلام كذلك بعلاقة الانسان بأخيه الانسان ولقد أصر الاسلام على فكرة الوحدانية التامة

وبذلك جذب الى جانبه هؤلاء الذين نموا في أنفسهم النزعة العقلية وهكذا تمكن الاسلام عن طريق مؤسساته الاجتماعية وتنظيماته الديمقراطية ودفاعه عن المساواة بين البشر من ان يجذب اليه جميع الطبقات — العليا والدنيا • المثقفون وغيرهم الاحرار والمضطهدون •

ولقد تبنت الهندوسية ثلاث (طرق) للخلاص • هدف هذه الطرق حسب الفلسفة الهندية — هو تمكين الفرد من الحصول على الحرية في مرحلتي الميلاد والميلاد الجديد •

اول هذه (الطرق) يسمى (كارما — ماركا) او طريق الحركة او العمل حسب ما يرى اصحاب هذا المذهب فان الحركة الصحيحة او العمل السليم هو أساس الخلاص على ان هذه الفلسفة كانت بشكل ما فلسفة نفعية لأن غرض الدين هنا كما عرف هو الخلاص من الالم الذي هو نتيجة العمل السيء وعلى ذلك فقد كان العمل السليم هو الطريق المؤكد للتخلص او الهروب من الالم وفي التطبيق العملي لهذه الفلسفة فان (العمل السليم) كان يعني القيام بالطقوس الدينية والتضحية واتباع العرف الاجتماعي • وهكذا وبمقتضى ذلك فان الشخص الذي ولد في طبقة دنيا لابد ان يقوم بواجباته المفروضة عليه وعلى هذه الطبقة ان وضعه المنحط هو نتيجة لاعماله في حياته السابقة (أي قبل ولادته) ان محاولة لتغيير احواله وظروف حياته في وضعه الحالي تعني انحطاطا اكثر سوءا له في مرحلة حياته القادمة (أي بعد ان يموت وتنسخ روحه من جديد) •

الطريقة الثانية تسمى (جنانا — ماركا) او طريق المعرفة ويؤمن اصحاب هذه الطريقة في ان المعرفة هي الطريق نحو الخلاص •

اما الطريقة الثالثة فهي طريقة (بهكتي — ماركا) او طريق الاعتناق والاخلاص لله فالاخلاص لله والقيام الخالص على عبادته هو طريق الخلاص في نظر معتنقي هذا المبدأ•

هذه الطرق الثلاث لا تختلف في معتقداتها الاساسية او فلسفتها او مفهومها ونظرتها للمجتمع • على ان اكثرها شعبية واقواها كانت الطريقة الاولى ـ طريقة العمل الصالح ويرى بعض مشاهير مفكري الهند وس ان الطريقة الاولى ذات أصل آرياني وان الطريقة الثالثة ذات اصل درافيدى اما مذهب الاعتكاف والاخلاص فقد كان أضعف المذاهب جميعا واقلها شعبية ولكن في هذه الطريقة بالذات وجدت الهندوسية سلاحا تواجه به الاسلام •

لقد كان المتصوفة هم مبشرو الاسلام في شبة القارة الهندية • وقد اتنى هؤلاء المتصوفة فكرة الحب الالهي بكل الكيان النفسي • ولقد كانت فكرة الحب الالهي عندهم اساس العقيدة واسمى منجزات الانسان • وقد تمكنت الهندوسية من خلق مدرسة فكرية تقبل هذا المفهوم • وهكذا ظهر عدد من الصالحين الذين نشئوا في احضان الهندوسية وسموا باسم (الباكستاس) او المخلصين والمعتكفين لله • وقد رفض هؤلاء مفهوم تعدد الآلهة ودعوا الى الوحدانية واعتبروا حب الله هو اسمى الفضائل • ولم يهتموا كثيرا بنظام الطبقات بل ان بعضهم رفضه • واعتبروا الطقوس الخارجية للعقيدة التي كانت لها أهمية كبرى لمعتنقي الطريقة الاولى (كارما ـ مارجا) غير ذات أهمية واكدوا أهمية نقاء القلب ونقاء الروح والاخلاص التام لله • ولأنهم رفضوا الطقوس الخارجية للعبادة فان الاختلافات الدينية فقدت عندهم كل أهمية ونادوا تبعا لذلك بمبدأ المساواة بين كل الديانات • فالديانات في نظرهم طرق مختلفة تؤدى الى نفس الهدف الا وهو الوعى الكامل بالله الذى كان يهمهم حقا هو بشكل اساسى هو حب الله وليس الانتماء الى أى عقيدة او دين معين • هذه المبادئ كانت لها جاذبية وسحر خاصة عندما يتم تطبيقها عمليا بأمانة • هذه الحركة ولدت جوا مفيدا من التسامح والفهم وقد تفرعت بين الهندوس الى فرعين احدهما يميل بقوة الى الاسلام بنواحيا لا يختلف كثيرا عنه • والثانى يميل أكثر الى الهندوسية • فهو يقبل مبدأ الاخلاص والاعتكاف والاستغراق في الله ولكن يحتفظ في الوقت نفسة بالعقائد الهندوسية الاساسية •

ولقد كان احسن من مثل الفرع الاول (كبير) والفرع الثانى (دولسى داس) مؤلف (الرامايانا) بالهندية الذى اصبح انجيل الهندوسية فى شمال الهند لعدة قرون .

ولقد كان الفرع الذى يميل اكثر الى الاسلام هو سلاح الهندوسية ضد الاسلام فان مبادئ هذا الفرع حدث الى حد كبير تحول الناس الى الاسلام . وهكذا يمكن القول ان اسلحة الاسلام سيطرت وان نفوذه الروحى اتسع وامتد ولكن حجمة المادئ لم يتأثر بل توقف فاذا كانت الديانات تؤدى الى نفس الهدف فان الهدف هو المهم وليس الوسيلة اليه واذا كانت كل الديانات متساوية فى الجودة فان التحول من دين الى آخر لا معنى له اذ ان هناك تحول اساسى مطلوب وضرورى . هو تحول الروح .

واليوم — عندما انتهى تأثير الاسلام على الهندوسية أو على الاقل لن يقبل قبولا حسنا فانه من الممكن ان نرى مدى زيف هذا الموقف بأكمله . ولكن فى هذه الايام البعيدة هنا فان مثل هذه الاعتراضات لم تكن لتبدو ذات أثر او موحيبها لقد وجدت مثل هذه الفلسفة طريقها الى قلوب وعقول الكثيرين حتى بين المسلمين نجد من يعتنقها وينجذب اليها . ابرز مثال على ذلك كان الامبراطور (أكبر) وهكذا وجدت (البدعة — اقصد الاراء والافكار التى تخالف المألوف والمعتاد بين المسلمين) طريقها بين مسلمى شبه القارة وتأثر بها البلاط والنبلاء والجماهير . وهكذا ظهرت خالقين الفزع والهلع فى المعسكر الاسلامى الارثوذكى او المحافظ فبدلا من جذب معتنقين جدد وجد نفسه يفقد اعوانا له وانصارا ولقد كان الاساس الفكرى للمعسكر الاسلامى المحافظ واضح ويتمثل فى الايمان التام بمبادئ محددة اما معسكر (أهل البدعة) فقد كان من الصعب مهاجمته من نقطة واحدة نظرا لانه كان يتمتع بخواص عديدة مثل الابهام والغموض والضباب . ومع ذلك فقد كان ينمو ويزدهر الى الحد الذى تمكن فيه كثير من العلماء الهندوس من أن يجذبوا اتباعا لهم من بين المسلمين والعكس ايضا كان صحيحا ان اى المسلمين جذبوا انصارا لهم من بين الهندوس . ولكن هذا لم يكن شئ يمكن التواسى به لقد زاد الطين بله . وزاد التسيب العام ومع ذلك فلم يكن الموقف من وجهة نظر الاسلام ميئوسا منه

فقد نتج عن الموقف كله تفاهم عظيم بين الهندوس والمسلمين وظهر جو أفضل في البلاد ساعد الحكومة مهنة الحكم وازداد سرعة التمازج الحضاري .

وهكذا ما اراد تحقيقه الحكام المسلمون قام بالنص على تحقيقه رجال كانت تعاليمهم لها وقع السحر على النفوس . وقد عمل الملوك وعمالهم بشكل متعمد واعي على بناء جسور فوق الهوة التي تفصل بين الحكام والمحكومين . هذه الجسور تحولت الان الى طرق أساسية على يد السكان المتقاربين . ولكن قبل ذلك هوجمت الارثوذكسية الاسلامية من داخل قلعة الاسلام نفسها . ففي البداية حاول القرامطة الاستيلاء على السلطة عن طريق ثورة او انقلاب تام التنظيم ولكنه فشل . فيما بعد تمكن السلطان فيروز شاه الذي كان واقعا تماما تحت تأثير طبقة العلماء من معاقبة القرامطة .

ثم ظهر تحد آخر جديد على يد (المهديين) فقد انتهز سيد محمد الجانيوري من حالة التسيب التي زحفت على المجتمع الاسلامي وتصور انه يسمع صوتا ينبئه انه هو المهدي الموعود الذي يستعيد للاسلام ماضيه وعزه وقد دعا الجانيوري الى ايمان كامل بمبادئ الاسلام وأسس نظاما من الوعاظ والمبشرين عاشوا عيشة الزهد لايملكون شيئا ويشاركون بعضهم البعض في معيشتهم ولم تكن آراء الجانيوري كلها (بدعة ولو لم يكن قد ادعى انه المهدي لاعتبر واحد من اخلص واعظم واعظي ومبشري المسلمين ولكنه أعتبر (هرطيقا) نظرا لادعائه المهدوية .

وقد تابعت الارثوذكسية الاسلامية بهلع ازدياد نفوذ الطائفة الجديده . وتحت حكم السلطان اسلام شاه سور زادت موجة الهلع والتعصب بين العلماء الارثوذكسي الى الحد الذي تمكنوا فيه من التأثير على السلطة وانزال العقاب المطلق باثنين من أبرز زعماء الطائفة المهدوية هما شيخ علاي وشيخ عبدالله نيازي كان اولهم ضعيفا نتيجة زهده ورحلاته التبشيرية فلم يكد يبدأ عقابه حتى توفي . اما الثاني فقد كرر بعد عقابه مرضي عليه ولكنه لم يعلن توبته . بعد ذلك تأهب تلقاء نفسه عندما قال له شاهد يثق فيه ان سيد محمد جانيوري قد اعترف بخطئه قبل موته والدليل على ذلك انه لم يتمكن من تجديد شباب الاسلام .

ولقد حاربت الارثوذكسية الاسلامية المهدوية لامد طويل ولكن بدون اسلحة موثرة ذلك ان العلماء كانوا قد امتزجوا بالسياسة واستعملوا قوة الدولة للقضاء على اى اعتقادات مغايرة . ولكنهم فشلوا وهذه القوة نفسها استعملها احيانا بعض العلماء الانانيين للتخلص من منافسيهم . والشيخ مبارك — الذى كان بالتأكيد هرطيقا كان واحدا من هؤلاء الذين قاسوا .

وفى عهد الامبراطور اكبر تقابل اكثر من مجرى مائى لتكون فى النهاية نهر صاخب كان هناك الشيعة الذين أتوا من ايران ، ثم المهدوية الذين — وان لم يعلنوا عن عقائدهم الا انهم كانوا من اكبر مناوئ ومعارضى العلماء الارثوذكس المسلمين ثم كان هناك المتصوفة من اصحاب البدع ثم كان ايضا هناك الهندوس وهناك (البكتاس) ثم الجزويت المسيحية ثم اتباع زرادشت ثم اتباع الجينية وجماعات أخرى كلها خلقت جوا عجيبا غير محبب على الاطلاق لنفوس العلماء الارثوذكس المسلمين . ولقد قاست الارثوذكسية الاسلامية فى الهند لانها فشلت فى ان تخرج من بين ظهرانيها قادة وزعماء فى مثل مهارة وذكاء خصومهم من أمثال ابو الفضل وحكيم ابو الفتح وآخرين .

على ان الخصوم ذهبوا الى مدى بعيد فى آرائهم . فقد بدأوا يتساءلون ويتشككون فى مبادئ الاسلام الاساسية وهكذا ولدوا رد فعل قوى كان لابد ان يحدث .

وفى عهد الامبراطور جهانجير ظهر الشيخ احمد سرهندى المعروف باسم (مجدد الالف الثانية) ولقد تمكن سرهندى بجهود جبارة من القيام بحركة احياء اسلامية هامة .

ويمكن للدارس ان يلاحظ التغيرات السياسية التى حدثت نتيجة هذه الحركة التى قام بها سرهندى فى الاجواء المختلفة التى سادت فى بلاطات الاباطرة أكبر ، جهانجير شاه جهان واورانجزيب عالمجير .

ولقد كان أكبر قمة نجاح حركة (البدهه) في الاسلام الهندي واما عهد جهانجير فقد مثل انحطاط وتدهور هذه الحركة • اما شاه جهان فلم يتخل ان يتسامح مع التسيب والفوضى في البلاط نظرا لتقواه ومحافظته الدينية • ولكن في نفس الوقت لم يتحرك ضد العناصر غير المحافظة • اما عالمجير فقد كان رمز انتصار الارثوذكسية الاسلامية •

ولقد كان رد الفعل طبيعيا لان التسيب والفوضى الزائدين عن الحد قد اضعفا الاسلام ويجب ان نتذكر ان سلطان الاسلام السياسي في شبه القارة الهندية كان يقوم اساسا على القوة الروحية للمسلمين وعلى مدى نظامهم • فطالما كانت الامبراطورية ذات نزعة اسلامية سليمة ومتمكنة تماما من ولاء رعاياها فقد كانت آمنة مطمئنة ولكن تحت حكم أكبر اهتز الولاء للامبراطورية • لقد عامل الحكام السابقون على اكبر رعاياهم غير المسلمين برعاية وتسامح وخيرية وقدموا الهندوس وعناصر اخرى غير مسلمة في مناصب قيادية مسئولة • ومع ذلك فان لب السلطة والقوة كان دائما في يد المسلمين • لقد تغير هذا الوضع على عهد اكبر في البداية كان الشاعر يتغنى بمنظر (الهندوسي وهو يستعمل سيف الاسلام) ولكن سرعان ما فقد المسلمون ولاءهم الخاص للامبراطورية • ولكي يكون الحكم ناجحا فيجب أن يعتمد اما على تحالف وتعاون الاغلبية او على الولاء العميق والقوي لفئة واحدة من السكان لم تنجح الامبراطورية المغولية في أي من هاتين الوسيلتين فلم يكن الهندوس ينظرون ابدا الى الدولة كدولتهم • وعندما خدم رجال مثل (مان سنج) وآخرون الامبراطورية باخلاص وولاء وحماس لم ينظر اليهم اهل طائفتهم باحترام او تقدير بالتأكيد فهؤلاء حماسهم وولاءهم يتجه غالبا نحو رؤسائهم الهندوس الذين يتحدون السلطة الامبراطورية •

ومن الصحيح ان نقول ان كثيرا من المؤرخين الهندوس قد كتبوا من وجهة النظر الاسلامية والصقوا بالثوار والمتمردين اوصافا يستعملها فقط المسلمون • ومن الصواب ايضا ان نقول ان الفلاحين والتجار كان هدفهم الاساسي السلام والحماية اكثر من أي شيء آخر وانهم كانوا يكرهون الفوضى وعدم استتباب الامن ••• ولكن في

تلك الازمنه كانت الطبقات النشيطة سياسيا وذات الوعي هي طبقة الروءساء واتباعهم المحاربون الذين كانوا ينحازون الى السلطة فقط طالما ان هذا كان موافقا لمصالحهم وأمره سهـل لم يكن هناك في الحقيقة اى حماس حقيقى من قبل الهند وس لخدمة الامبراطورية رغم انهـم كانوا يعلنون اعجابهم وتقديرهم بتسامح الدولة وعدم تحيزها وعزمها على حماية الضعيـف من طغيان القـوى •

فى الايام السوالف كان للمسلمين مثل هذا الحماس • مهما يكن من أمر الحاكـم وصاحب العرش فهو حاكم مسلم • ولكن هذا الشعور — الذى عمل سلاطين دلهى بتفى عزمهم على تقويته — تحطم على عهد الامبراطور أكبر وكان من عوامل اضعاف الشعور كذلك انقسـام المسلمين الى طوائف دينية ومجموعات تنتمى الى دول مختلفة • فهناك الشيعة والسـنة وهناك الايرانى والطورانى • كل ذلك اصبح من العسير تآلفه من جديد • والتفكيـر فى مفهوم (القومية) بالنسبة لهذه العهود أمر سابق لاوانه وفى غير محله او وقته • وعلـى ذلك فلم يكن هناك اى اساس او عامل موحد بالنسبة للدولة المغولية الا الدين وحده كـان يمكنه لم شمل المسلمين • وبالرغم من بعض المشاكل الواضحة فى هذا السبيل فأن الديـن كان يمكنه وحده مجموعة واحدة من الناس على الاقل مخلصة للامبراطورية وتضحى وتحـارب من أجلها •

وتحت حكم سلاطين دلهى فان مثل هذه المجموعة اظهرت قدرتها فى الدفاع عـن الدولة ضد اعداء اقوياء وضد الثورات الداخلية • وعندما لم تتمكن هذه المجموعة مـن أن تستمر كوحدة واحدة متآلفة فقد قامت الدولة والان فى تلك الايام كان هناك عقبتان •

أ — فقدان المسلمين لحماسهم لأن روحهم المعنوية اصابها التحطيم كيف يمكنهم أن يعتنقوا ان الدولة فى حاجة الى حماسهم واخلاصهم اذا كانت الدولة نفسها غير متصلـة اتصالا قويا بالاسلام ؟

ب — بالاضافة الى ذلك فان حالة الفوضى والتسيب العام قد أدت الى عمومية الرؤيـــة عند المسلمين — غموض الرؤية فى ان الاسلام ليكون قادرا على ان يعيش فى اوج هندوسية يجب ان يكون على أهبة الاستعداد فى كل وقت •

ولقد أضحى الخطر على قوة الاسلام السياسية واضحا كل الوضوح عندما بدأت — الثورات الهندوسية التى كان يقودها الراجيوت والمراتا • ولكن الخطر على الناحيـــة الدينية للعقيدة لم يكن بهذا الوضوح للمعاصرين •

ان الفرق بين التسامح وعدم المبالاه او الاهتمام فرق ضئيل للغاية بالنسبه للرجل العادى وعدم المبالاة الحقيقية يمكن خلقها عن طريق دعاية مستمرة تحابى الفكرة القائلـة بأن كل الديانات متساوية وانها واحدة والبيئة الهندية بوجه خاص بيئة خطرة بالنسبـة لعقيدة بها تغلب على المؤمنين بها نزعة اللامبالاة اذ ان هذه البيئة تجتاز بقـدرة على الاستيعاب لمختلف المتناقضات من الاراء والمبادئ ثم التوحيد بالتدريج بين هـذه المتناقضات بالتأثير عليها بقوة من خلال نظرتها ومبادئها ومحاولات البيئة الهنديـة فى هذا السبيل احيانا مقصودة وواعية مثلما الحال عندما طالب المتطرفون الهندوس فـى العقد الثالث للقرن الحالى بضرورة تبنى المسلمين الهنود اسماء هندوسية وتقاليـد هندوسية وتسمية انفسهم (الهندوس المحمديين) واحيانا تأخذ هذه المحاولات شكـل رد فعل انعكاس مثلما الحال فى الحركة البكتية • ومحاولات النوع الثانى هى الاخطر لانهـا غريزية وعميقة ودقيقة ولكنها مؤثرة فى نتائجها واتجاهاتها •

ان تأثير التسيب المدمر وتأثير سياسة أكبر ونتيجة الانحراف عن مبادئ الاسلام ذلك الانحراف الذى أدى بدورة الى فقدان الولاء والحماس للدولة كل ذلك كان واضحـا ومفهوما للشيخ سرهندى مجدد الالف الثانية • وقد حاول ان يعالج كل ذلك • وقـد نجح الى حد كبير ولسوء الحظ كان عليه ان يتبنى فرضا ولتوجهه النظر الارثوذكسيـة

المحافظة وهكذا وجد نفسه فى صراع مع الشيعة لم يكن يستطيع ان يتجنب هذه المقهة لان نفوذ الشيعة المتزايد فى بلاط أكبر قد ضاعف من حالة التسيب من الجو المساعد على (البدعه) ولقد كان موقف الشيعة طبيعيا حيث ان الارثوذكسية كانت فى حرب ضد كل الطوائف الخارجه فى نظرها • وقد كان من اللازم على الارثوذكسية لكى تنجح ان تضمن تأييد البلاط لها وايمانه بعقائدها واذا ما ساند البلاط الارثوذكسية فسوف يضحى تأثير الشيعة وعلى ذلك تحالف الشيعة مع كل القوى المناوئه للارثوذكسية •

على ان حركة سرهندى لم تكن بالضرورة موجهة ضد الشيعة ولكنهم أتوا فقط فى نطاق هجوم الحركة •

كانت حركة سرهندى موجهة اساسا نحو التصوف الذى بايمانه بفكره وحدة الوجود ظهر وكأنه يعضد الفكرة القائلة بوحدة الاديان وهى فكرة — كما أشرنا من قبل — كانت سلاح فى يد الهندوسية ضد الاسلام •

وتبين خطابات سرهندى انه بجانب جهوده ضد التسيب والفوضى العقائدية فقد كان له ايضا برنامج سياسى ايجابى ويهدف هذا البرنامج الى استعادة المؤسسات التى ألغيت او التى أسئ استعمالها وكان أهم هذه المؤسسات الجزئة ولقد كان هذا هو البرنامج الذى تبناه فيما بعد الامبراطور اورانجزيت عالمجيز •

ولقد كان هذا الامبراطور هدفا لكثير من اساءات الكتاب الهندوس والبريطانيين وقد وصف بأنه ضيق الافق متعصب حط من شأن الواجهة النبيلة للامبراطورية المغولية عندما اضطهد الهندوس وان شاه جهان رغم انه كان ارثوذكسى وتقى فى حياته الخاصة الا انه لم يضيق الخناق على الاخرين واتبع سياسة اكثر ايجابية واكثر اسلامية من والده وقد ابقى نفسه بعيدا عن كل الاجراءات التى ربما تثير تأثرات عناصر قوية فى الحياة السياسية للامبراطورية • وان تحيزه مع دارا شيكوه أسبغ على ارثوذكسته صبغة الحياد فى عيون

خصومه وعندما بدأ الصراع على العرش عند الراجبوت وبعض الاخرين الذين رأوا فى انتصار الارثوذكسية شئ غير مقبول دارا شيكوه وعندما ظهر عالمجير منتصرا فى هذا الصراع كان مضطرا نتيجة طمعه وميوله الخاصة وايضا نتيجة ضغوط انصاره ومؤيديه ان يسلك سياسة تمالئ وتؤيد الارثوذكسية ولقد حاول كذلك كسب الطوائف الاخرى الى جانبه ولكنه لم ينجح وبالاضافة الى ذلك فان موضوع الصراع كانت من الوضوح بحيث لم تحتمل الا المواقف الواضحة ولم تكن قابلة للتجنب •

وقد اتهم عالمجير بأنه هو الذى سبب ثورة الراجبوت وانه سبب تقوية المراتها نتيجة تدميره لسلطنة بيجابور وجولكنده • لقد خاب ظن الراجبوت بعد هزيمة دارا شيكوه ولكن ثوراتهم يمكن ارجاعها الى اسباب محدودة غير دينية او لدوافع ذات طبيعة شخصية او قبلية او سياسية ومن الصواب القول ان دارا شيكوه او اى أمير آخر له ميول ارثوذكسية أو كان من المحتمل ان يواجه معارضة وربما تماثل تمجيده ومساندته • ولكن هذا أمر يختلف من القول بان سياسة الاضطهاد للهندوس المتهم بها عالمجير ـ حفزتهم على الثورة •

ولقد أتهم عالمجير كذلك بانه تحت ضغط دوافع دينية قام بتدمير سلطنات الشيعة فى الدكن • ومن المدهش هنا ان نرى ان حوافز متشابهة قد أتهم بها شاه جهان ولكن أكبر ـ وهو صاحب ومبتدع سياسة التوسع نحو الجنوب ـ لم يتهم بهذه الاتهامات لان الاتهام فى هذه الحالة تستند و متهافت •

بالنسبة لشاه جهان فان القائلين باتهامه يرون الدليل فى تصميمه على الا تحمل عملة جولكندة أى محتوى شيعى • ولكن من الواضح ان ملكا يصير على ضرب اسمه وحده فقط على العملة لا يرحب على الاطلاق بوضع اى محتوى شيعى بجانب اسمه ـ او حتى غير شيعى وكان ذكر اسمه فى الخطبة رمز آخر أيضا بل كان فى الحقيقة اكثر ضرورة اذ ان اسم الملوك الصفويين فى ايران كانوا يذكرون فى الخطبة من قبل وهذا الاجراء استدعى بطبيعة الحال

اسقاط اى اشارة ضد السنة في الخطبة ولكن لم تحدث اى نوع من السيطرة على ممتلكات الشيعة في الدكن على يد شاه جهان في الوقت الذى بدأ فيه عالمجير يتدخل فلم يكن هناك خيار . فان سلطنات الدكن كانت قد قطعت شوطا طويلا في طريق الانحلال والضعف ففى جولكنده كان الحكم الفعلى في الوزراء الهنود وفى بيجابور كانت الفوضى ضاربة اطنابها حيث ثار المرايا واعجزت الحكومة تماما حالة الفوضى والنهب والمساءت .

ولم يكن لدى السلطنيين لا الارادة ولا الوسيلة لاخماد حركات المراتـــا

ولم يكن في وسع عالمجير ان يتجاهل خطر المراتا صحيح ان الفوضى كانت في بقاع اخرى يسيطر على الامبراطور ولكن الامر هنا كان أعظم خطوره والفوضى لها وسائل تنتظر لتنتشر وهى تتجاهل الحدود من اصل واحد وتجاهل الفوضى في الدكن امر لم يكن يبشر بخير على الاطلاق بالنسبة لسائر انحاء شبة القارة الهندية وفي الحقيقة هذا واحد ث فان المراتا سرحوا قوى التدمير والفوضى في انحاء البلاد ولم يقدروا بعد ذلك على الحد منها ولم تهدأ الاحوال الا عندما اصبح الناس في حالة من التعب والضعف جعلهم يتحالفون مع القوى المنظمه التى خلقها البريطانيون الذين اخضعوا المنطقة بالتدريج لسلطتهم .

وهكذا كان على عالمجير ان يواجه احتمالين الفوضى العارمة او قيام قوة معارضة له ومجاورة . وعلى ذلك فقد كان عليه ان يحمى دفاعا عن النفس وكان في امكانه ان يرى الموقف بوضوح كان يرى ان الامور سوف تزداد غموضا وان المراتا كان في امكانهم طلب المساعدة من الهندوس الاخرين خاصة انهم استعملوا شعارات متلفة مثل (هندو ـ ياد ـ يا د شاهى) اى امبراطورية هندوسية ونادوا بطرد قتلة الحيوان المقدس ـ البقرة ورأى ايضا احتمال تدهور العلاقات مع ايران بسبب قندهار وان الحرب ضد سلطنات الشيعة في الدكن سوف تؤلب مشاعر الشيعة . ويكفى ان يقرأ المرء كتاب (الوقائع) الذى الفه نعمت خان على بشتائمة الناعمه ضد الامبراطور ليقيس ويفهم مشاعر الشيعة .

ولقد كانت الاعلانات الرسمية تصدر فى صيغ مفخمة ومطولة حتى تحفظ على الجيوش الامبراطورية سمعتها ولم تكن هذه الاعلانات تحمل الى الشيعة اى شعور بالخطر . ولم يكن من الممكن ان يقال لهم ان السيطرة الاسلامية نفسها كانت تحارب بمعركة حياة او موت حتى يمكن كسبهم للدفاع عن القضية النبوية قضية الاسلام نفسه بالاضافة الى ذلك فقد كان الامبراطور دائما ينتصر فى معاركة مما اخفى حقيقة ان القوة الاسلامية كانت فى طريقها الى فقدان الحرب وان انتصرت فى معارك .

ولقد كانت مهمة عالمجير من اصعب وادق المهمات التى واجهها حاكم ولقد كانت له ارادة من حديد فرغم انه كان عجوزا ومريضا وضعيفا الا انه ظل يحارب وظاهريا يبدو وكأنه ينتصر دائما ولكنه هو وحده اكثر من اى شخص آخر تحقق عندما سمح لنفسه بان يحمل الى قصره فى اورانج آباد لاخر مرة بانه قد فقد كل شيء .

وفى حربه من اجل الاسلام لم يكن عالمجير يتوقع تعضيد من رعاياه غير المسلمين وبعض المسلمين — محمولين بتعاطف ضيق الافق — لم يتمكنوا من فهم وتقدير اهمية الدراما التى كانوا يشاهدون وقائعها واحداثها اما الاخرون فلم يتمكن احد من جذب ثقتهم واخبارهم بالمدى الحقيقى للخطر لان أهم ما كانت تهدف الامبراطورية الى المحافظة عليه هو سمعتها وعزتها وفى ظل كل هذه الظروف فان عالمجير قام بكل ما فى وسعه القيام به . لقد عضد قوى الارثوذكسية التى وقفت وحدها تسانده وتساند جهوده ولقد حاول ان يخلق من جديد المشاعر الاسلامية التى تركت فى عهود سابقة نهبا للانحلال والضعف ولم يقبل ان حل وسط مع اى مجموعة من المجموعات فى هذا السبيل الا اذا كان الحل يقوم على اساس من العدل والتسامح .

ولقد اوضح عالمجير بان معاركه مع الثوار الهندوس او مع الدويلات الشيعية لن تجعله ينحرف او يتحول عن واجباته نحو رعاياه من الهندوس او الشيعة . ونجد فى مرات كثيرة فى خطاباته اكثر من عبارة واشارة ترينا كيف كان عالمجير حساسا للغاية ويقظ الضمير فى معاملته لكل من الهندوس والشيعة .

ولقد كان يتحلى بروح عالية من المسؤلية وتقوة وزهد في حياته الخاصة . ولم يكن المرض المخول بالنسبة له سرير من الورود . لقد طمح اليه بروح الدفاع عن النفس ولانه كان رجل وهي تام لكي يرى ويفهم كيف ان مجموعة قوى كانت تعمل بالتدريج لتحطيم قوة التراث الاسلامي في الهند وعندما اعتلى العرش شخص الاخطار بشكل سليم وروح واجب عاليه لم يتوانى لحظة وحارب حتى آخر رمق فيه محاولا ان يستعيد الارض المفقودة شبرا شبرا وعندما تحقق ان الهزيمة حلت مع اقرب موته فان أسفه لم يكن على نفسه ولا على الجهود الهائلة التي ضاعت ولكن على مستقبل الاسلام في الهند ولقد حارب ضد الهزيمة آملا في النصر ولقد كان مجاهدا صادقا يرى في ان يجهد في سبيل الايمان هو غرض وهدف في حد ذاته .

ولقد حكم عليه كثير من المؤرخين بمقاييس لا أهمية لها . انهم لم يقدروا صعوبة الموقف الذي واجهه ولا الاخطار التي احاطت بالاسلام في الهند في ذلك الوقت .

على ان اسوأ الامور على النطاق السياسي حدث على عهد عالمجير لقد انتشرت الفتنة التي حارب القواد المسلمون غير المسلمين ففي الايام الاولى لا نسمع ابن ان نسلم قبل رشوة من امير هندوسي او ثائر وعندما كان حسن خان مواتي يساعد (رانا سانجا) في حربه ضد بابر مؤسس دولة المغول في الهند فان حسن خان مواتي وصف بانه غير مخلص او خارجي . وقد وقف همايون بعيدا في حربه ضد بهادور شاه في الكجرات عندما كان الاخير يحاصر قلعة راجيوتية وحتى في ايام أكبر فان ولاء القواد المسلمين في الحرب ضد غير المسلمين لم تكن ابدا محل شك . بل ان قواد أكبر من الهند وسي ومن الجنود كانوا يصفون بانهم (حاملو سيف الاسلام) .

لقد تمكن فن الرشوة ونمى وتطور في الدكن ولقد تبنى المغول على الفور وسيلة الرشوة هذه كأسهل وسيلة للتغلب على الخصم ونحن نقرأ عن استعمال هذه الوسيلة على عهد أكبر والنتيجة ان افساد العدو كان وسيلة معترف بها في الحرب حيث كان الافساد يعني سحب الولاء او خلعه في وقت الحاجة اليه — وهذا ما وقع فيه وحدث لكثير من القادة المغول انفسهم . وتمكن الداء تماما على عهد عالمجير الذي لم يورث فقط نظام المنصدار بل ايضا

ورث موظفى وادارة بيجابور ثم جولكنده وفى عهد عالمجير نرى كيف ان الابن المفضل للامبراطور ينحاز الى الراجبوت وكيف ان احد كبار القادة مثل ذو الفقار خان يدخل فى حلف مع المراتا وان جزءا كبيرا من الجنود الامبراطوريين يسلكون وكأنهم جنود مرتزقة على استعداد للحريق صف الذى يدفع اكثر او غير مهتمين بمن يحاربون له وبالتالى يحاربون بلا قلب و اخلاص وهكذا كان الفساد هو الصفة المميزة الان لكل القوة المغولية الحربية بالاضافة طبعا الى صفة اللامبالاة واحيانا صفة عدم الولاء •

قليل من الجنود المسلمين كانوا يحاربون من اجل قضية او هدف لقد اصبحوا بذلك مجرد جنود محترفين • ولقد كان الجنود المسلمين على عهد سلاطين دلهى تسيطر عليهم مشاعر الجهاد •

اما جنود عالمجير فقد كانوا فى الاغلب ينظرون الى اعمالهم كنوع الحرفة يكسبون من ورائه ويتعيشون •

اما المراتا — وهم طائفة محاربة — فقد كانوا يحاربون بغرض النهب والسلب وايضا بغرض تأسيس ما اسموه (هندو — باد — باد شاهى) • وقد كانوا نتيجة لذلك قادرين على مواجهة المصاعب وتحمل حربا لمصابات وبغض النظر عن الدين فقد كان الثوار الراجبوت كذلك — مثلهم فى ذلك مثل المراتا مرتبطين ببعضهم بروابط الدم والعشرة والطبقة بالاضافة الى ذلك فقد كانوا على علم ارضهم واكتسبوا كذلك عواطف السكان المحليين وكم يبدو غريبا كيف ان القواد المسلمين وجنودهم لم يتنبهوا الى الخطر الداهم او على الاقل لم يعمسوا عندهم الشعور بالخطر واكثر من ذلك عجبا ان ارادة عالمجير وعزمه مكنتاه من مواجهة هذه المصاعب الى الحد الذى تمكن فيه من دحر ثورة الراجبوت والاستيلاء على (شاهو) ولو خلف عالمجير رجلا فى مثل عزمه ونشاطه ولو ظلت القيادة المسلمة كما كانت قادرة فربما كانت قوى الفوضى والاضطراب قد دحرت فى مهدها ولكن مع ظهور او تباشير القومية الحديثة فان السيادة الاسلامية كانت كذلك محاطة بالاخطار وكان مقيدها ايضا لا يختلف

عما آلت اليه .. أعنى الانهيار ومع ذلك فلم يكن هناك أى سبب فى الحقيقة يمنع أى قيادة مسلمة قوية من استعادة تضامن وقوة المسلمين فى شبه القارة الهندية ... لو كانت هذه القيادة قد ظهرت . وتعتبر الفترة التى تلت موت عالمجير من أسوأ واقتم فترات الوجود الاسلامى فى شبه القارة الهندية .

ومن الناحية السياسية فلم يسمح المسلمون فقط لنفوذهم وقوتهم ان تضمحل بل ايضا لم يبذلوا جهدا يذكر لانقاذ أنفسهم من التدمير .

وفى مواجهة أخطار جسام أظهرت نفسها على شكل فقدان مساحات واسعة والتى لم تكن لتحتاج فى التنبوء بها أى رؤية خاصة او مقدره على التنبوء فان المسلمين فشلوا فى توحيد أنفسهم .

لقد قسمتهم الاختلافات الشخصية والطائفية حتى فقدوا القدرة على حماية الاسلام نفسه ولم يكن المسلمون فقط هم الذين قاسوا الشطط بل ايضا كل انحاء شبه القارة الهندية وقعت تحت وطأة المراتا . ولو كان المراتا حاولوا تأسيس امبراطورية على مبادئ قويمه من الحكم فقد كان من الممكن للسكان وغالبيتهم من الهندوس ان يتحرروا من كثير من المظالم التى وقعوا تحت وطأتها نتيجة الفوضى السائدة على ان المراتا تحملوا جزءا ضئيلا من المسئولية بالنسبة للمناطق التى خربوها . فقد كانت سياستهم تقوم على النهب والسلب وكانت قواتهم تهاجم المناطق الريفية الآمنة وتخربها تماما ولقد بدأوا يحكمون بعض المناطق ولكنهم كلما كانوا يبتعدون عن وسائلهم المخربة . وقد أعطوا المثل فى ذلك لآخرين فقلدوهم . ولقد كان (البنداريون) مثل التتار سوط الله المسلط على الناس وهكذا تدمرت على ايديهم المناطق الاهلة والنظم المتهدمة التى شيدها اباطرة المغول على مدى قرون حكمهم .

هذه الفترة لعبت دورا حاسما فى خلق تلك الحالة من البؤس والفقر المستديم التى عاشتها الجماهير الهندية بسرعة .

ويبدو ان المسلمين فقدوا كل الامل حتى ظهور أحمد شاه أبدالى (عبدالى) علـــى مسـرح الاحداث • ثم ظهور قائد آخر بعيد النظر هو نجيب الدولة الذى انتهز الفرصة وجمع حوله بعض الكفاءات الاسلامية فى شمال الهند لتعضيد احمد شاه أبدالى الذى ألحق بالمراتا هزيمة ساحقة • ولم يفق المراتا أبدا بعد ذلك من خسائرهم ومن هذه الضربة القاتلة التى حلت بهم فى موقعة بانيبات • فقد بدأ نفوذهم يتقلص ومع ذلك فان المسلمين لم يتمكنوا من استعادة روحهم المعنوية او وحدتهم •

ولم يجد احمد شاه أبدالى فائدة كبرى فى توحيد من عضده من مسلمى الهنـــد فى اى عمل بناء • وهكذا فان الاسد المسلم بقى يلعق جروحه بعد صراع مستمر ضـــد المراتا وتمكن فقط من جمع آخر جهوده ليضرب بها معذبيه • وسرعان ما وقع ضعفـــه وهكذا نجح البريطانيون ـ القوة الجديدة الصاعدة على مسرح الاحداث ـ فى جمع ثمـــار هزيمة المراتـــا •

ويعتقد بعض المؤرخين انه كان هناك ـ فرصة لكى تنجح الامبراطورية المغولية فى مواجهتها للتوسع الغربى لو لم تكن قد مزقتها الصراعات الداخلية • هذا الاعتقـــاد غير ذى موضوع فقد كان فقدان السيطرة على البحر أكبر ضربة وجهت الى القوى الاســلامية فى جميع انحاء العالم • وأهمية دخول القوى الغربية الى بحار الامم الشرقية شىء لــــم يعره المسلمون ـ قبل حدوثه ـ اى اهتمام • فطالما كان المغول اقوياء فهم قادرون على منع معاقبة التجار المسلمون الذين حاولوا الحصول على امتيازات تجارية فى ممتلكاتهم •

وقد كانت الامبراطورية المغولية موجوده وعلى قيد الحياه ـ ولكن بالاسم فقط ـ عندما نجح البريطانيون فى الحصول على فرصتهم ولقد كان لاضافة الامبراطورية الهند بسعة مصادر ثروة البريطانين دورا هاما فى اعطاء الحضارة الغربية قوة دفع كبرى • وخلق ذلـك ما عرف التوسع والسيطرة الامبرالية الذى نظر الى اراضى آسيا القديمة على انها مغنـــم مشـــروع •

ومهما يكن من أمر فان الضعف الداخلي لمسلمي الهند انفسهم هو الذي أدى الى سقوطهم في ذلك الوقت أكثر من اى عامل آخر.

وقد عبر هذا الضعف عن نفسه في طرق شتى • فقد بدأت المفاهيم والقيم تأفسل وفقد المجتمع الاسلامي مصادر الهامة • واصبحت الانانية بدلا من الاخلاص هي التي تتحكم في تصرفات الرجال • وحلت الخرافات محل الدين الصحيح • وحلت احلام اليقظة والآمال الغامضة محل العمل والحركة وحتى العقائدى فسد نتيجة امتزاجه بكثير من العادات المحلية الفاسدة • ولقد كان الفقهاء المتعلمون على وعي واضح بهذه الحقائق ولكن عامة الشعب لم يكن ان تعاليم المجدد سرهندى لم تتمكن من النفاذ او الوصول الى الجماهير • فقد كانت الجماهير مسلوبة الروح المعنوية وحتى بين الفقهاء فقد كان هناك عدد قليل واضح الفكر هؤلاء حاولوا انقاذ ما يمكن انقاذه رغم ان الصعوبات كانت جمة •

ولقد كان سقوط الامبراطورية المغولية رمز للسقوط الاخلاقي والمعنوي لمسلمي الهند • وتقع مسؤلية هذا الانحطاط بطبيعة الحال على أكتاف هؤلاء الذين نسوا وشجعوا روح اللامبالاة بين الناس •

ان نمو الحكم الاسلامي وتطوره في مناطق غالبية سكانها مسلمون لم يشجع عامة الناس في المشاركة بشكل فعال في امور السياسة ولقد حاولت الروح الديمقراطية للاسلام ان تبحث عن أشمل تعبير لها من خلال حياتها الاجتماعيه ولكن بعد ايام الجمهورية - تحت حكم الخلفاء الراشدين الاربعة توقفت الحكم الاسلامي عن ان يكون ديمقراطيا في روحه ولقد اصبح الشكل القانوني لنظام الانتخاب أمرا من قبيل الرسميات ولم تقم اى مؤسسات سياسية تكون وظيفتها ربط الناس بالحياه العامة وبشئون الدولة •

ان النظام القانوني في الاسلام الذى بني على اساس المبادىء الاسلامية العادلة والصحيحة والديمقراطية اغفل مثل هذه الضمانات الى المواطنين ونمست المؤسسات الادارية واصبحت ذات مقدرة منعت أى طبقة من مضايقة الشعب وبالتالي

اجباره على خلق مؤسسات ذات ادارة ديمقراطية • لقد كانت الديمقراطية في الغرب (يقل بالتبني) للاقطاع الاناني وعرفه القانون المتسلط والخشية • أما في البلاد الاسلامية فان الحكومات البيروقراطية السليمة (هدهدت) جماهيرها وساعدتها على النوم والراحة • وهكذا فان الحروب التي كانت تقوم بغرض السيطرة على السلطة او العرش لم تمس الناس ولم تقلق الحروب راحتهم • ودواوين العدل والحسبه التي كانت مسئولة عن احوال الناس ورفاهيتهم كانت دائما في ايدى رجال أتقياء وفقهاء مثقفون لا شأن لهم بالسياسة ولا بالانقلابات او التغيرات السياسية في الغالب • وادارة البوليس والمالية والشئون المحلية كل ذلك كان يتأثر بالحروب فقط اذا مست هذه الحروب بشكل مباشر المناطق التي تقوم منها هذه الادارات • وفي ايام السلم فان هذه العوامل لم يكن موجوده لاقلاق راحة المواطن • وقد تتأثر مشاعر وعواطف المواطن العادى للاحداث حوله اذا كان له اهتمام او مصلحة خاصة فيها رغم ان هذا كان نادر الحدوث • وهكذا فأى صراع لم يكن في الحقيقة يعني أى شئ للعامة • واذا كان هناك شر مستطير مثل الغزو التتاري مثلا حيث يتأثر الجميع به فان مثل هذا الشر كان يقتل ولا يشجع أي نشاط سياسي • وبوجه عام كانت الحياه سهلة وبسيطة واذا كان هناك اى نوع من المشاكل فهي بشكل اساسي مشاكل شخصية وعندما بدأ المجتمع في التحلل - لأسباب متعدده في هذه البلاد فلم يكن هناك اى نوع فوري من مشاعر الخطر لقد كانت هذه المشاعر بالاخطار تنمو ببطء وعلى زمن طويل وربما بشكل غير محسوس كذلك • (معنى ذلك ان المواطن المسلم عاش حياة سلبية • وساعده على ذلك الامان الذى يشعر به حيال مؤسساته الدينية وأنها سوف تحمية وتحمي حقوقه • غير ان الحكام في الواقع تمكنوا من التلاعب حتى بهذه المؤسسات فلم يبق للمواطن المسلم أى نوع من الحماية ولكن هذا حدث بعد ان نمى في المسلم نزعه عدم التدخل في شئون الحكم والمسائل العامة • وهكذا وجد المواطن المسلم نفسه فاقدا لمصادر حمايته وبنى المؤسسات الدينية وفاقدا لقدرته وارادته التي أصبحت سلبية محضة)

أما في الهند فان وجود المسلمين كان دائما مهددا من قبل القوى الثائـــرة والمعادية كما كان ايضا مهددا من قبل تأثير الهندوسية الهدامء وغير المحسوس •

في الاراضي الاسلامية الاخرى كان العدو والخصم داخل أرواح الناس والمجتمــع اما في الهند فكان العدو في داخل الناس والمجتمع وخارج الناس والمجتمع ايضا •

ولقد تعرض مسلمو الهند دائما الى الاخطار الخارجية وهكذا فان عزيزة البقــاء عندهم اصبحت قوية وحماسة لقد نموا في انفسهم نظاما يقوم على الدفاع والغزو في آن واحد وهذا مكنهم من مواجهة اخطار الغزوات التتارية • لقد كان الشعور بالاخطار الداخلية هو الذي ألهم المسلمين بتكوين امبراطوريات قوية حسنة الادارة في شبه القارة الهندية ولكن سياسة أكبر قد عملت الى حد كبير على اضعاف بل محو هذا الشعور بالخطر الداخلي على اساس انه اذا كان الهندوس (يحسك بسبب الاسلام) فان أي مشاعر بالخطر مــن الهندوس تصبح عقيمة المعنى • ونتيجة لذلك فعندما جاء يوم الحساب وحارب الهندوس من أجل (هندوية باد - باد شاهي) اي من اجل اقامة حكم هندوسي وامبراطوريــة خالصة - اخذ مسلمو الهند على غرة لانهم كانوا قد فقدوا - على يد أكبر - مشاعــر الخطر الداخلي بالاضافة الى ذلك فان الثورة الهندوسية وسقوط الامبراطورية المغوليــة جاءا متأخرين •

فعندما عين (سندهيا) كنائب لامبراطور دلهي لم يكن هناك في الواقــــع اي سلطات في يد الامبراطور شاه عالم • ومع ذلك فقد لقب (سندهيا) باسم (ابــــن الامبراطور وقائده) •

ولقد كان موظفو شركة الهند الشرقية يوقعون على المستندات العامة باسم (خدام) الامبراطور المغولي الذي كان نذكر بالاسم • وحتى عام ١٨٥٧ - وبعد ان توقفت الشركة عن القيام بأي عمل باسم الامبراطور في أمور الادارة العليا - سمحت بالاسطورة بأن تستمر في الامور المحلية وحتى في العقد الاول من القرن العشرين وفي داخل البلاد - كــان

المعلن العام عندما يعلن عن أمر عام يقدمه بقوله :

(ان العالم هو عالم الله وايه البلاد هى بلاد البادشاه والادارة هى ادارة حضـــرة الشركة) ٠

والمراتا بالذات ظلوا يحتفظون بأسطورة السيادة المغولية في انحاء كثيرة مـــن المناطق التى سيطروا عليها ٠ وفى هذه المناطق أبقوا ايضا على المحاكم الاسلاميـــة وقانون الاحوال الشخصية الاســلامى ٠ وعندما كان يسؤل بعض الفقهاء فى ان يفتى فى مدى شرعية قبول المسلمين فى هذه المناطق لحكم المراتا فكان هؤلاء الفقهاء يقولـــون انه طالما ان المراتا قد قبلوا السيادة الاسلامية وأبقوا على المحاكم الاسلاميه وقانـــون الاحوال الشخصية فليس هناك أى عائق شرعى لقبول المسلمين لحكم المراتا ٠

كيف اذن فى ظل مثل هذه الفتاوى والاحكام يمكن للمواطن العادى ان يميـز ما بين (مان سينغ) و (سندهيا) وبدون قيادة سليمة وموحدة فان المسلمين ـ فـــى كثير من الحالات والامثلة ـ لن يعرفوا ان الحرب ضد المراتا التى قامت للابقاء علـــى سلطان الاسلام كانت (جهادا) وليست مجرد صراع داخلى عميت بين قادة وزعمـــاء ينتمون الى عقائد مختلفة خاصة ـ نتيجة الضعف الذى أصاب السلطة المركزية ـ ان هؤلاء القادة اعطوا الاذن بالحرب على هذا الاساس بالفعل ٠

هذه الاقوال لا يجب ان تؤخذ على انها تعنى ان غير المسلمين لا يجب ان يسمح لهم بالاشتراك فى مسؤلية الحكم ٠ ولكن كان من الجرائم الكبرى خداع المسلميـن بجعلهم يعتقدون ان بقاء الامبراطورية لم يكن مسؤليتهم الاساسية ٠ واكثر من ذلـــك خطرا كان تشجيع الشعور القائل بأن التسامح يعنى الاعتقاد بأن كل الاديان ما هـــى الا طرق مختلفه نحو هدف واحد وان كل الاديان حسنه بشكل مساو ٠ وقد كان هـــذا سببا هاما فى تحطيم روح المسلمين المعنوية وانحلالهم وخاصة عند قبولهم للافكار غيـــر الاسلامية الدقيقة والصعبه على الافهام وفى الحقيقة فقد كانت هذه الحقبه من أظلـــم

حقبات تاريخ الاسلام الهندى ومع ذلك فالاسلام يملك خاصية المطاطية التى مكنتــــــة من انقاذ ذاته من التدمير الشامل فى الهند •

قد أسهمت مشاكل الاسلام فى اخراج مفكرين حللوا أسباب سقوطه وحاولـــــوا ايجاد المخرج والعلاج • من أعظم هؤلاء المفكرين كان شاه ولى الله الدهلوى • لقـــد كان مشاهدا للأحداث من حوله ومراقبا لها • متخصصا فى ذلك بعلم غزيرا سلامـــــى لقد كان مفكرا عميق الفكر وفيلسوفا عميق الفلسفة • لقد شخص شاه ولى الله المتاعب والمشاكل التى كان الاسلام فى شبه القارة الهندية يعانى منها واقترح شاه ولى الله العلاج • ولـــم يهرب شىء ذو أهمية عن باله أو عن ملاحظته • فالدين والاقتصاد والاجتماع وغيرها كـــل ذلك تجده ممتزجا وواضحا فى فلسفته المتسعة •

لقد رأى شاه ولى الله انه من الضرورى على المسلمين ان يصححوا من تفكيرهم اذا ارادوا لانفسهم البقاء والسلامه والهروب من الدمار واستغراقهم فى البيئة الهندوسية المحيطة بهم • ان اصلاح اى مجتمع وصل الى مثل تلك الحالة من التحلل والضعف لا يمكن ان يتم فى يوم • لابد من اجيال عديدة حتى يتمكن المسلمون من التخلص من كثير مــن التقاليد والعادات التى نشأت عن تفكير خاطىء ولكن لا يهم الوقت بمجرد ان تبدأ ارادة الاصلاح فسوف يستمر بدون توقف •

وفى نفس الوقت كانت هناك قوة جديدة تنمو • لقد اصبح البريطانيـــــون بسرعة القوة الاولى فى الهند لقد كان لهم القدرة الفائقة فى اتباع عدة سياسات سليمة الى حد كبير ومكملة بعضها البعض • وبالرغم من انحلال المسلمين السريع فانهم كانـــوا لا يزالون فى نظر البريطانيين جديرين بالمراقبة والملاحظة فانه لا زالت هناك بعض الكفاءات وبعض الولايات وتقدرتهم التبعية على التعليم كانت لا تزال بخير • وذكرى ماضيهـــم المجيد لم تمت وفى الحقيقة بينما تحقق للجميع فقدان الامبراطورية وبينما كان المفكريـــن يحاولون ايجاد وعى بهذا الفقدان فان هذه الذاكرة او الذكرى بقيت بكل فخار واعتزاز •

في كل هذه المحاولات رأى البريطانيون اخطارا محدقة • اما المراتا - فيما عدا في ارضهم (الماهاراشترا) - فقد فشلوا في جذب أي شعبية لهم وكانوا في نهبهم وسلبهم غير متحيزين وقد قاسى منهم المسلم والهندوسي على السواء وكان كل منهما ضحية للمراتا •

اما الهندوس الاخرون فقد فقدوا عرش حكم البلاد باستثناء الراجبوت الذين كان من الصعب توحدهم ومن الصعب عليهم تأسيس امبراطورية لهم •

اما ثورات وحركات العناصر الاخرى مثل الجات فكانت امورا محلية نسبيا والسيخ ايضا كانوا أقلية ضئيلة ليمثلوا خطرا على البريطانيين وقوتهم في كل انحاء شبه القارة ••وكان السيخ في اول أمرهم يسيطرون في منطقة البنجاب ثم هزموا وخضعوا اما المسلمون فكانوا خطرين • ولكن خطرهم كان كامنا • وعلى ذلك فقد اتبع البريطانيون سياسة كانت تختلف من وقت لآخر ولكن لها زي واحد ترتديه هو زي العداوة ضد المسلمين ولقد اضحى قادة المسلمين على وعي بهذا العامل وهذا جعل نموذج الكفاح الاسلامي من اجل البقاء والوجود والحرية معقدا للغاية وصعبا للغاية .

ولقد كان كل من حيدرعلي وتيبو سلطان من اوائل قادة المسلمين الذين قدروا وفهموا فعالية ونشاط الخطر البريطاني •

لقد كان تيبو سلطان من ابرز الشخصيات في تاريخ الاسلام الهندي ففي الوقت الذي غفل فيه معظم الساسة والمفكرين والقادة عن تقدير وفهم أهمية قيام ونهوض الدولة الاوربية نجد ان تيبو قد نبغ وتطور في ذاته وعيا كاملا بذلك فقام باصلاح جيشه وطوره بالفكر والسلاح الحديث والتنظيم وقدر أهمية التكنيك الغربي الذي كان في ذلك الوقت مجهولا تماما بالنسبة للمسلمين • وقد فكر تيبو سلطان في التحالف مع دولة اوربية ضد الاخرى على مستوى دولية وفكر كذلك في انشاء تحالف اسلامي لمجابهة التحدي الجديد ولم ينجح تيبو سلطان في جهوده نتيجة مشاعر الغيرة من قبل جيرانه خاصة عداء (النظام) وايضا لان القوى

الاسلامية الاخرى لم تكن لها مثل ماله من روئية وبعد نظر • ولقد كان من الممكن ان تكون الدولة العثمانية خليفته الكبرى وكان من الممكن لهذا التحالف ان يخدم غرضين • فقد كان في امكان تيمور سلطان ان يعلن استقلاله عن امبراطورية المغول وكان هذا يعني عدم خضوعه لسلطة (النظام) وقد استخدم (النظام) وضعه القانوني كنائب للامبراطور المغولي ليعلن خضوع كل الجنوب لسلطانه •

ولم يكن هذا كله ليهم المراتا • فمهما كانت اغراضهم الحقيقية فانهم أعلنوا حقهم في جمع الـ (شوت) وليس حقهم في السيادة • ومن المهم هنا ان نعرف وان نشرح ما هو (الشوت) حتى نفهم الوضع القانوني • من الصعب القول متى ظهر (الشوت) الى حيز الوجود ولكن بالتأكيد يرجع عهده الى عهد شيفاجي في اجزاء كثيرة من الامبراطورية الاسلامية كان الروساء المحليون يتقاضون (سمسرة) تقدر بحوالى ٢٥٪ من نصيب الدولة على الانتاج الزراعي ولم تكن هذا يعني فقط ضرورة اعتماد الدولة على التعاون مع هولاء الروساء في كل الامور ولكن كان يعني ايضا قيامهم بعدد من الواجبات والوظائف المحدده •

فقد كان عليهم ان يساعدوا في جميع الالتزامات المطلوب الوفاء بها للدولة وكانوا كذلك مسوءلين عن حفظ النظام في مناطقهم وعندما يحدث اي اضطراب او يتعرض هذا السلام للخطر فقط كان هولاء الروساء الذين يتقاضون (الشوت) هم المسوءلون مسوءلية مباشرة • وفي حالات القتل مثلا الذي لا يعرف فاعلها او حالات السرقة وقطع الطريق فان هولاء الروساء كانوا يقومون بتعويض هولاء الذين فقدوا اقاربهم او ممتلكاتهم واذا عجز هولاء الروساء عن حفظ الامن فانهم يفقدون ما يتقاضونه من (سمسرة) واذا كان اهمالهم متعمدا وكانوا شركاء في الجرائم فقد كان يحق بهم العقاب •

وقد أعلن المراتا ان هولاء الروساء — ومعظمهم من الهنود ومن وايه كان بعضهم من المسلمين — لن يستطيعوا الايفاء بالتزاماتهم في حفظ السلام في وجه المراتا وعلى ذلك فقد طالبوا (بالشوت) في الواقع لانفسهم كثمن لتوقفهم عن النهب والتخريب وان كانوا

ظاهريا زعموا ان ما سوف يتقاضونه من (شوت) هو عبارة عن اجور لهم لقاء قيامهم بحفظ الامن والسلام • وبطبيعة الحال لم يكونوا مثل هؤلاء الرؤساء الخاضعين لسلطة المغول فهم لم يأخذوا على عاتقهم مسؤولية حقيقية لابقاء المناطق الريفية خالية من الجرائم وكان الوضع القانوني هو عدم مطالبتهم للسلطات المغولية بأي نوع من السيادة لأنفسهم • فقد طالبوا فقط بحقهم في (الاجور) لقاء ضمان السلام والامن للمناطق المختلفة وكف السرقات والنهب المنظم عنها • وقد كان الحاكم الذي عليه ان يقوم بدفع الديات وحفظ الامن الداخلي • وهكذا اما عن طريق النهب والتخريب واما عن طريق دفع (الشوت) فقد كان الامبراطور صفر اليدين •

وقد كان الامبراطور وحكام الاقاليم المستقلين بعد ان فقدوا سلطانهم السياسي في أشد الرغبة للابقاء — على الاقل — على وضعهم القانوني وقد ابدى المراتا الاستعداد الكافي لعدم التعرض لهذا الوضع القانوني •

ومن ناحية أخرى فان المراتا — عندما يرون في ذلك مصالحتهم وخدمة أغراضهم — لم يتورعوا عن استغلال هذا الوضع القانوني لصالحهم •

وقد اوضحنا من قبل كيف انهم استطاعوا اقناع بعض الفقهاء بان يعلنوا احكاما شرعية تحث على عدم ضرورة مقاومة المراتا في مناطق نفوذهم • وحتى اذا كان وضع المراتا القانوني مختلف بشكل واضح واذا ما فكروا في اعلان سيادتهم فان هذا لم يكن يهمهم في شيء •

فالنسبة للمراتا كان الابقاء على اسطورة السيادة القانونيه للمغول ضرورة سياسية كان الامر أمرا سياسي وليس أمرا متعلقا بالضمير •

وقد كان وضع تيبو سلطان مختلف تماما • كان قد اعلن استقلاله • ليس في الامر شيء جديد ان يعلن حاكم مسلم عدم خضوعه او ولائه للسلطة العليا فمنذ انقسام الخلافه كان مفهوم الوحدة القانونية او الشرعية للعالم الاسلامي قد انحل وتضعضع والمغول أنفسهم أعلنوا خلفاء في نطاق امبراطوريتهم ولم يعتقدوا انه من الضروري الاعتراف بأي حاكم آخر كخليفة لكل العالم الاسلامي •

والمغول أنفسهم أعلنوا أنفسهم خلفاء فى نطاق امبراطوريتهم ولم يعتقدوا انه من الضرورى الاعتراف بأى حاكم آخر كخليفة لكل العالم الاسلامى .

على ان السلطة القانونية لاباطرة المغول كانت من القوة بحيث ان كل المغتصبين او كل الذين حاولوا النيل منها بالاستقلال مثلا فى جميع انحاء الامبراطورية كانوا حريصين فى تصرفاتهم .

على ان الولاء الاسلامى لسلطة مركزية كان ضرورة سياسية بجانب كونه مسألة أخلاقية على اساس ان اى ثورة ضد السلطة - خاصة اذا كانت السلطة قائمة بمقتضى الشرع - كانت تعتبر ضد الشرع وعلى ذلك فان اى من الذين يفكرون فى خلع ولاءهم واعلان استقلالهم عن الامبراطورية سوف يفقدون تعضيد المسلمين اذا ما ثاروا بدون خروج أو تريث . ومن الصواب ان نقول ان التعضيد يمكن ان يشترى او يمكن الحصول عليه بالقوة ولكن ولاء المسلم الحق لا يمكن ان يكسبه ثائر يثور ضد السلطة عبثا او بدون هدف ولقد وصف تيبو سلطان بأنه كان ثائرا وقد فشلت كل جهوده للحصول على اعتراف به من البلاط المغولى والسبب فى هذا الفشل يرجع الى جهود اعوان ووكلاء (النظام) وكان من الضرورى لذلك أن يحصل تيبو سلطان على اعتراف قانونى كاف بسلطاته ووضعه القانونى وهذا يمكن الحصول عليه من السلطان العثمانى الذى كان خليفة ليس فقط فى نطاق مملكته بل ايضا على كل انحاء العالم الاسلامى خاصة بعد ان استولى على الحجاز وبعد ان تسلم اجداده الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين فى مصر ولو كانت الامبراطورية العثمانية فى حالة من القوة والتحفز لكان من الممكن ان ترحب بفرصة توسيع نفوذها فى جنوب الهند . وكان من الممكن ان يكون ضعف امبراطورية المغول اسهاما آخر فى هذا الاتجاه . ولكن الامبراطورية العثمانيه كانت قد فقدت نشاطها وحيويتها . ولم تكن تملك الارادة ولا الامكانيات التى تمكنها من القيام بمغامرة جديدة وكل ما حصل عليه تيبو سلطان فى الحقيقة كان عبارة عن نداء من الخليفة العثمانى بان يمتنع تيبو عن عقد اى تحالف مع فرنسا لان فرنسا فى ذلك الوقت كانت خصم العثمانيين .

وقد طلب من تيبو بدلا من التحالف مع فرنسا ان يتحالف مع بريطانيا التى كانت صديقة لتركيا نتيجة عداوتها هى الاخرى لفرنسا .

وقد نجح البريطانيون اولا فى عزل تيبو سلطان ثم بعد ذلك دحره والقضاء عليه ومن بين كل الحكام والقادة الهنود الذين قاوموا النفوذ البريطانى فى الهند لم يكن هناك من نال أسوأ الاحكام وأشبع التجريح مثل تيبو سلطان الذى نال بخط بريطانيا وكراهيتها . والسبب الاساسى ربما يكمن فى انه ما من احد فهم حق نتائج وآثار التوسع التدريجى للقوة البريطانية فى الهند مثلما فهم تيبو . وانه ما من احد حاول ان يتبنى الطريقة الوحيدة الفعالة لطرد البريطانين الا تيبو سلطان .

لم ينجح تيبو سلطان لان الهنود ولان الاوضاع الدولية بالمثل لم تكن فى صالحه وايضا لان هدفه وآماله لم يفهمها معاصريه من قادة عصره وهكذا لم يسمح البريطانيون — وهم اكثر انتباها بأهدافهم ووعيا بالاحوال الضرورية اللازمة لتحقيق هذه الاهداف — لانفسهم ان يبدوا أن تسامح لمثل هذا الخصم الضيف وهذا كله يشرح لنا كل هذه الادعاءات وكل هذا التجريح ضده .

ساء وضع المسلمين وتضعضع فيما يتعلق بنفوذهم السياسى ومع ذلك فلم يكونوا قادرين على التخطيط لمستقبلهم السياسى على اساس من وضوح الرؤية . وربما لم يكن أى تخطيط ممكن فى تلك الايام . ولقد كان ظهور النفوذ البريطانى شيء مضلل ذلك لانه أخفى الحقيقة القائلة بأن المسلمين لكونهم أقلية فلن يستطيعوا أن يأملوا فى حكم الهند الى الابد . ولقد كان ذلك من الممكن عندما كانت سيادتهم فى قمتها وعندما كان الاسلام نشطا سياسيا وقويا فى المناطق المحيطة بالهند . ولقد تهدمت دفاعات النفوذ الاسلامى عندما أختطفت الامم الاوربية سيادة البحر من ايدى المسلمين ولقد نجح الاوربيون فى ذلك لان تجارة المسلمين كانت مسالمة ولان كل مركبا وربى كان

معما بحيث تتحول الى مركب حربى عندما تتطلب الظروف ولقد تمكنت البحرية المصرية من كبح جماح القرصنة فى المياه الشرقية الى الحد الذى جعل من غير الضرورى للسفن التجارية المسلمة ان تتسلح • ولكن فى ذلك الوقت كان الاوربيون قد تفوقوا فى فن المدفعية •

ولقد حدث سقوط الامبراطورية المغولية فى نفس الوقت تقريبا الذى انحلت فيه القوى الاسلامية فى كل مكان • ومن هنا كان حلم تأسيس امبراطورية فى الهند تنافس البريطانيين موضوع ليس له محل •

هذه العوامل لم يقدرها تماما القادة المسلمون وهكذا تمكن حلم تأسيس الامبراطورية من ان يستمر حتى تم وأده تماما بفشل حركة (التمرد) او كما تسمى ثورة الاستقلال سنة ١٨٥٧ •

وحتى فى ذلك الوقت كان بعض الذين غمضت عليهم الامور من بين المسلمين يحلمون بغموض بيوم تنتصر فيه العقيدة سياسيا • وكان عدد هؤلاء غير كبير • كذلك لم تكن آراؤهم مفهومة او قائمة على اسس من التفكير السليم • ومع ذلك فان هذه الظاهرة اوضحت ان لا زالت حياة فى النفوس وأمل فى القلوب •

وفى القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر كانت الرغبة فى احياء مجد الاسلام قوية وواسعة النطاق وجذبت اليها مجهودات مجموعة من افاضل الرجال فى المجتمع الاسلامى •

من بين هذه المجهودات المنظمة كانت حركة سيد احمد شهيد كان لهذا الزعيم شخصية ديناميكية • كان له روح الشهيد وشجاعة الفارس والطموح الصوفى للولى وهكذا اصبح بعد قليل الرجل الذى ارتكزت عليه الامال ورجل المصير الذى يقود قومه الى النصر •

وهكذا مكنته شخصية التقية الورعة التي امتزجت فيها صفات عدم الانانية والتضحية والاعتماد التام على الله من ان يجمع حوله اتباع مخلصون .

ولقد كانت استراتيجية حركة هذا الزعيم المخلص سليمة في خطوطها العريضة ومفاهيمها .

فمملكة السيخ قامت في منطقة غالبية سكانها مسلمون . وكان السيخ شديد الوطأة على المسلمين وعلى طقوسهم وعلى طريقة حياتهم بشكل عام في هذه المناطق . لقد حد السيخ في هذه المناطق من حرية المسلمين في ممارسة طقوس عقيدتهم . وهكذا كان الامر امر واجب مقدس يلتزم به كل المسلمون لتحرير هؤلاء اخوانى المسلمين من هذا الطغيان وقد رحبت بالحركة العناصر الاسلامية التي كانت تمتلك بعض وسائل الكفاح . وكان على الحركة ايضا ان تنظم نفسها داخل الهند التي تسيطر عليها بريطانيا وذلك لتتمكن من تجنيد المحاربين وجمع الاموال اللازمة . ولكن الحرب نفسها كانت في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية حيث يعيش سكان هذه المناطق في بشكل مستقل فضلا عن طبيعتهم الحربية ولذلك كان الاعتماد على مساعدتهم كبير . واذا تمكنت الحركة من اخضاع البنجاب (التي كان يتمركز بها السيخ) تحت سيطرتها فان البنجاب يمكن ان تكون مركزا لاستعادة مناطق اخرى من الهند بالتدريج .

وكان الحماس التي استقبلت به الحركة ادل دليل على رغبة المسلمين المحتدمة في العمل من اجل احياء الاسلام وهكذا بدأ البناء الخلقي الذي بدأ يأخذ مجراه ببطئ في اعطاء ثماره .

ان شاه ولي الله والمفكرون الذين تابعوه لم يتوانوا في محاربة العناصر الهدامة في مفاهيم ونظرة الناس هؤلاء مثلوا القيادة الفكرية والان قامت قيادة عملية على يد سيد احمد شهيد وقدمت للمسلمين الفرصة .

ولقد اظهر الناس رغبتهم العميقة وارادتهم فى انهم راضون على تحمل المشـــاق وتقديم التضحيات من اجل الهدف . وفى تلك الايام حيث كانت وسائل المواصلات بدائيــة لم يكن الامر سهلا مثلا على الفلاح البنغالى ليخاطر بأسرته وممتلكاته فى سبيل الاعلاء الدينى بمحاربة حكومة قوية حربية منظمه على حدود المناطق القبلية وفى جو ليس فقط مختلف عن جوه بل ايضا قاسيا ورهيبا .

لقد كان هذا كله هو الايمان العميق . الايمان العميق الذى جعل من وجود مثل هذه الظاهرة امر ممكن الحدوث . ولقد كان تأثير هذا الايمان على شخصية المنتجيــن الى الحركة من انبل التأثيرات . ان هذه الحركة لم يكن من الممكن حدوثها بدون العمــل الصامت الذى كان تشمه حركة البناء الخلقى التى كانت تسير فى مجراها منذ عهــــد شيخ احمد سرهندى المجدد تقريبا ولكن حركة سيد احمد شهيد اسرعت واختصرت مدة تشييد هذا البناء الخلقــى .

لقد فشلت الحركة نتيجة عوامل الضعف الكامنة فيها وايضا نتيجة مؤمــرات اعدائها ضدها .

لقد كان سيد احمد شهيد متعمق التدين وعلى ذلك فقد كان يطالب اتباعـــه باتباع اصول الاسلام بكل دقـة ولقد قاد ذلك الى ضرورة اصدار احكام وفتاوى من وقـــت لآخر عما اذا كان مثل هذا المسلك او ذاك يتفق مع الاسلام لا يتفق . ولقد كان احـــد قادة هذه الحركة المؤثرين فى احداثها مولانا اسماعيل شهيد احد هؤلاء (البيوريتانين) الذين اصروا على عدم التسامح ضد كل ما يتعارض مع الدين ولكن هذه النزعه خلقت بعض سوء الفهم فى عقول بعض المخلصين الذين كانت آراؤهم تختلف .

ولما كانت الحركة الوهابية قد تمكنت من شبه الجزيرة العربية فان اسماعيــل شهيد وصف بانه (وهابى) وهكذا وصمت كل الحركة بانها (وهابية) .

الاان الوهابية المتطرفة والاقوال والتقارير التى نشرت وقيلت حولها ـ والـتى كانت مبالغ فيها ـ خلقت عداءا خطيرا للحركة . فقد عارض الحركة كثيـر من الفقهـــاء

المحافظين وفيما بعد اصطدمت الحركة بالسلطات البريطانية واتهم قادتها بالخيانة وعوقبوا بشدة وكذلك في منطقة الحدود الشمالية الشرقية وجدت القبائل عنتا وارهاقا في قبول احكام الحكومة الثيوقراطية التي أقامها المجاهدون كما سمى هؤلاء المجاربون وبالاضافة الى ذلك فقد كانت السلطة تتركز في ايدي قادة الحركة واتباعهم الذين جاءوا من مناطق ليست هي مناطق الحدود الشمالية الشرقية • وهذا ما كرهته قادة هذه المناطق القبلية •

ولم يكن أهالى المناطق القبلية معتادون على دفع ضرائب ولما كانت حكومة سيد احمد شهيد اسلامية بصرامة فانها لم تنس فرض وجمع الزكاة من اتباعها • وكانت النتيجة ثورة قادة المناطق القبلية وهكذا انكسرت قوة الحركة واستمرت الحركة تحاول الحياة ولكنها كانت قد فقدت فعاليتها •

لقد فشلت الحركة في اهدافها السياسية ولكنها نجحت في الهام المسلمين بالهند بالرغبة المحتدمة نحو الاصلاح الديني والتطور السياسي وقامت حركة أخرى في عام ١٨٥٧ جاءت بشكل مفاجيء كنتيجة لمظالم الجنود الهنود الذين كانوا يشعرون ان البريطانين يحاولون تغيير ديانتهم •

ولقد حاول المراتا استغلال الموقف لصالحهم ودبروا خططهم واستراتيجيتهم بحكمة وكان غرضهم بشكل واضح هو استعادة سلطانهم وبدا ان المسلمين لم يكونوا منظمين بما فيه الكفاية • لقد ثاروا لمظالم حقيقية وقعت عليهم • ولكن بمجرد ان قاموا بالثورة فلم يفكروا الا في الالتفاف حول رمز قوتهم ونفوذهم • الامبراطور المتقدم في السن بهادر شاه •

لقد اعلن عدد قليل من مفكري المسلمين السياسيين رأيهم في ان احتمال استعادة المسلمين لسلطانهم المفقود احتمال ضعيف ومع ذلك • فقد كان هذه الرغبة الجامحة في استرجاع سلطان المسلمين ونفوذهم المفقود هي التي أدت الى ان الحركة

تجذب حولها تعضيد قوى من بين المسلمين • ولقد اختارت بريطانيا هؤلاء المسلمين كهدف لانتقامها وكان العقاب الذى حل بالمسلمين ثقيلا • فقد تدهورت احوال الاسر التى كانت موسرة لان البريطانيين — بدون استقصاء قضائى حقيقى — صادروا — فى سورة غضبتهم — ممتلكات واراضى هؤلاء الذين شكت الحكومة فى اشتراكهم فى الثورة او ساعدوها هؤلاء الذين أتهموا زورا بالاشتراك نتيجة تقارير مزوره عنهم •

وفقدت دلهى (التى كان يعيش بها عدد كبير من الاسر الثرية والمشهورة والتى كانت دائما مشعل النهضة الاسلامية الذى ظل مرفوعا حتى فى اصعب الظروف) شهرتها وقيمتها وقاست بشدة مدن اخرى فى بيهار وفى الاقاليم المتحدة ويبدو ان مسلمى شمال الهند قد قاموا بمجهود انسانى خارق للعادة — ولكنه أعمى — لانتشال أنفسهم من مهاوى الانحطاط والسقوط ولكنهم فشلوا • وكان من التهور لأى شخص فى ذلك الوقت ان يتمنى إن كان من الممكن انقاذ ثم لقد كانت حركة خلقتها عواطف وأحاسيس كان تحترق فى قلوب المسلمين وحركة بدون قيادة سليمة وبدون تخطيط واظهرت بدون سابق تفكير وطاقة غلابة وعنف مثل تقلصات جسم قوى يحاول ان ينقذ نفسه من قيود الموت هذا الجسم سقط وانتهى وبدى وكأنه لن يقف على قدمين مرة أخرى •

فى هذه اللحظات بين فى مفترق الطرق هذا انتج الاسلام الهندى واحدا من ابرز رجالاته — سيد احمد خان الذى لا تزال عظمته الحقيقة فى حاجة الى فهم وتقدير اكبر • لقد كان هذا الرجل قادرا على فهم انه من الضرورى على المجتمع الاسلامى فى الهند ان يغير من اسلوب تفكيرة • لابد لافراد هذا المجتمع ان يتعرفوا العالم الذى حولهم والذى يعيشون فيه لقد كان من المستحيل عليهم ان يتحدوا قوة الامبراطورية البريطانية فما بالك بالمدينة الغربية • لقد حلل سيد احمد خان اسباب السيطرة الغربية وهناك وجد ان اسباب هذه السيطرة تكمن فى تقدم الغربيين العلمى ورأى ايضا ان المسلمين الهنود — وهم على ما هم عليه من الضعف والهزيمة وخيبة الامل وانكسار القلب لديهم

أمل ضعيف للبقاء على قيد الحياه لو حاول البريطانيون اذلالهم او تحطيمهم • ورأى سيد خان لذلك ان مهمته تنحصر اولا فى محاولة التوفيق بين المسلمين وبين حكومة بريطانيا فى الهند حاول ان يزيل سوء التصور فى ذهن البريطانيين ضد المسلمين وذلك بشرح مشاكل المسلمين والاسباب التى أدت الى ثورتهم وكان سيد خان يعلم ايضا انه حتى ولو ارتضى الانجليز ذلك التصالح والتوفيق فان المسلمين لن يستطيعوا التقدم والنهوض بدون التعليم والعلم الغربى ولذلك قام سيد خان بانشاء الكلية المحمدية الانجلو شرقية فى عليجره حيث يتعلم فيها ابناء الاسر المسلمة التعليم الشرقى بجانب التعليم الغربى وقد ظل المسلمون بعيدون عن المدارس التى أنشأها البريطانيون لتعليم الانجليزية الى الاهالى وذلك لانهم كانوا يخشون على ابنائهم من التأثير الكاسح للنظره الاجنبية والمسيحية فى التعليم ولانهم كانوا فخورين بحضارتهم •

وماكولى نفسه كان يأمل فى انشاء جنس جديد سماه (بالانجليز السمر) فى الهند من خلال نظام التعليم الجديد كما ان الانجليز كانوا يأملون فى ابعاد الهنود عن عقائدهم بوساطة التعليم الغربى • وعلى ذلك فلم يكن من المستغرب ان شعبا فخورا بحضارته وديانته وذو وعى بهما ءشعبا يحترم قيمة التى شكلت حياته ان يظل بعيدا عما اراده البريطانيون به ولذلك فقد كانت مهمة سيد خان شاقة فى حث واقناع قومه على تبنى هذا التعليم الغربى مع بقائهم مسلمين بعد ذلك •

ولقد حاول سيد خان تحقيق غرضه بوسيلتين • ففى كليته التى انشأها زود الدراسة بتعاليم الفقة الاسلامى ودراسة طريقة الحياة الاسلامية او فى خارج الكلية حارب سيد خان ضد التفسيرات غير العلمية وغير العقلية التى فرضت على الاسلام على يد هؤلاء الذين ترعرعوا فى مدارس فكرية وفلسفية عفى عليها الزمن • ولقد كانت محاولة سيد احمد فى سبيل وضع تفسير عقلى للاسلام من أروع منجزاته • ففى عصر تحول فيه كثير من العلماء الهنود الى المسيحية لعجزهم عن الموائمه والتوفيق بين العقائد المختلفة والتباينة التى يعتنقها الهنود وبين العلم المعاصر ءفان سيد احمد خان

كان بعيد التأثير في تركيزه على الاسلامية جمعن تفسير النصوص الاسلامية تتفق وتتلائـــــم مع العلم والفلسفة الجديدين وقد كان لهذه الخطوة بطبيعة الحال تأثير عكســـــي على تقدم حركة سيد احمد خان لانها جعلت المعارضة لافكاره اكثر حدة وخلطـــــت بين الحاجة الى التعليـــم الحديث وبين ماظنته الجهات الاثوذكسية هرطقة او بدعة في امور الدين وبوضوح فكري بارز واصرار عميق لم يتمكن سيد خان فقط من ان يقـــود النضال بل ايضا تمكن من توسيع برنامجه • وقام هو بنفسه على تفسير وشرح مشاعر وخيبـــه ظن الهنود بشكل عام وقومه المسلمين بشكل خاص نحو وفي البريطانيين وبين سيد خان مثالب وعيوب السياسة البريطانيه التي أدت الى (الثورة) ولقد تذمر بعض الرســـميين من نقده الصريح ولكن أكثر الواعيـــن والفاهمين منهم قدروا اخلاصه وقام سيد خـــان ايضا بالعمل على ازالة سوء التصور ضد الاسلام في العقل الغربي وكتب في ذلك كتابا دفاعيـا ولكن مثله مثل كثير من هذه الكتابات لم يكن ناجحا • وبطبيعة الحال فقط كان يواجهـه هنا عمل مستحيل تقريبا • فلم يكن من السهل ازالة جبال التحيز والكراهية تراكمت منـــذ عهد الحروب الصليبيه عن طريق سوء التفسير والتقديـم •

ولقد كان سيد خان — من بين كل ابناء قومه المسلمين — اكثرهم نجاحـــا وقد ايقظت محاضراته ومقالاته في مجلته (تهذيب الاخلاق) ضده عداوة ضخمة وسمى مع أتباعه باسم (الدهريين) او الطبيعيين) — اى المؤمنين بقوانين العلوم الطبيعية أكثر من ايمانهم بالعقائد الاسلامية •

على ان هذا الاتهام — الذى كان يقوم على اساس وجهة نظر سيد خــــان في ان الحقائق الدينيه يجب فهمها حسب قوانين الطبيعة التي حددها العلم — كــان تسنده الحماسة وليس المنطق المقنع ولذلك فقد بلى هذا الاتهام واندثر مع الايام حـــتى رجل مثل جمال الدين الافغاني وهو من اعظـم رواد حركة وحدة العالم الاسلامي — رأى انه من الضروري ان يكتب ضد سيد احمد خان وضد آرائه الدينيه ولكن في أواخـــــر القرن التاسع عشر وبكل العزة التي تملكها العلم فان آراء سيد احمد خان حققت نجـاحا

متزايداً وشعبية بين العدد المتزايد من الهنود المسلمين الذين تلقوا التعليم الحديث حسب مقتضى النظام الغربي الحديث ان شعبية وانتشار هذه الافكار جعلت من كلمة (طبيعي) او (دهري) عبارة عفى عليها الدهر عديمة الاستعمال ولقد أوجدت هذه الافكار حركة لتفسير العقلي في الاسلام • ولقد كان من الطبيعي ان يحدث ذلك فان الناس دائما يفهمون الحقيقة الروحية في نطاق ثقافتهم وتحصيلهم العقلي ولان الاسلام عقيدة بسيطة خالية من الجمود النصي العقائدي فهو لا يقيم اي صعوبة في طريق مثل هذا التفسير والفهم • ومثل هذه الحركات ظهرت دائما في الاسلام نظراً لمنهجه العقلي في مسائل الايمان والقانون •وانيوم فان كثيرا مما نادى سيد خان يكون بشكل طبيعي حصيلة عقيدة أي مسلم باكستاني أو هندي مثقف • ولم يكن سيد احمد خان خياليا في تفكيره اي كل فكرة في القرآن يجب ان تخضع بدون خوف لقوانين الطبيعة كما تظهر هذه القوانين في العالم وكما يفهمها رجال العلم • ولكن كان على سيد خان ان يكون منطقيا ان عظمته لا تكمن في انه قدم تفسيرا (علميا) للحقية الدينيه وليس في انه أسس مدرسة جديدة لعلم الكلام • بل اكثر من ذلك تظهر عظمته في انه وضع مسلمي شبه القارة على طريق أنقذهم من كثير من الصراع العقلي والروحي وهكذا فان احد نتائج مجهودات سيد خان هي ان الاسلام خرج منتصراً من هجمات فلسفة زائفة او خاطئة قامت على اساس من نتائج ناقصة الاستقصاء في فهم وتفسير القوانين الطبيعية • وتدين قوة الشعور الاسلامي في شبه القارة الهندية — خاصة بين هؤلاء الذين اتصلوا بشكل قوي بالفكر الغربي — بالكثير لمجهودات سيد احمد خان فنتيجة لعملة واسلاميه أنقذ المسلمون انفسهم من زحف الشرك وعدم الايمان الذين كانت تخضع المجتمعات الاسلامية تئن تحت وطأتيهما •

ولم يترك سيد خان اي موضوع من موضوعات الحياه بدون اي يمسه او يعالجه وتوضح مقالاته في (تهذيب الاخلاق) انه حاول ان يصلح الزي وآداب السلوك والعادات وطرق المعيشة وفي كل مكان كان جهده الاساسي في ايجاد نوع من التوفيق بين الاسلام

والغرب وحاول ان يحفظ القيم التي تمثل الاسلام وتنميه وان يحول نما يؤلم او يؤذن فهمه او احساسه الشعور بالسلوك السليم والذي اعتبره سيد خان غير اسلامي في حقيقتـــه بدأ سيد خان يكتب في نثر بسيط وابتعد عن الزخرفة اللفظية والسطحية التي زحفت على اللغة الاردية • وبذلك تمكن سيد خان في أسلوبه من ان يكون ما شوا وذو سحر مما جعله اماما لمدرسة أدبيه جديدة في اللغة وكانت نثابته فيها عزة وأناقة ولكن بعيــدة عن الفخفخة او الاجهاد المؤلم الذي حصيلته مجهود غير ضرورى بالمرة وبما كان أسلوبه ومزال كذلك حتى اليوم — وقد مر حوالي قرن منذ ان بدأ مهمته — من الممكن الحكم على منجزات سيد خان في اطار سليم للتاريخ • لقد انتهت المعارضة ضده رغم شدتها • ومفهومه الاساسي في ضرورة الاحتفاظ بنوع من الانسجام بين عقل الانسان وايمانـــه بدون التضحية بالراحة الروحيه أو بدقة المعرفة العلمانية التي وسيلتها الاستقصاء والبحث — شيء مقبول ومرتضى به الآن بين قومه الذين نجحوا بشكل بارز في هذا المشروع الصعب

ولقد كان نموذج سيد خان الواسع في أمه اسلامية تبقى ولاء خالص وثابـــت للاسلام بدون التضحية بمكاسب التقدم الدنيوى • هو اينعا نموذج لمسلمي شبه القارة الهندية ربما لا ينجحون دائما • وفي الحقيقة مثل هذا الطريق كان من الصعب السير فيه ولكـــن الهدف قد حدد بدقة والمحاولات الذكية وجهت نحوه •

وفي مجال السياسة وجدت آراء سيد احمد تبريرا أقوى لقد كان على وعي تـــام بقوة البريطانيين على ايامه ولذلك ركز جهوده للتوفيق بينهم وبين قومه المسلمين •

ولم يكن سيد خان أقل وعيا بالتيارات والاتجاهات الديمقراطية على عهده ولــم يكن لديه أي وهم في الطغيان الذي يمكن ان يحدث عن طريق الاغلبيات العدديـــة وقد ابدى سيد خان في حياته وعمله حبه العظيم للاسلام ولقومه المسلمين لم يرد للهنود المسلمين ان يعرضوا أنفسهم الى متاعب الحياه دون اي ضمانات لوجودهم المستمــر ولحقوقهم ولم يقبل ابدا فكرة مزج المسلمين بأقوام آخرين وبذلك يفقدون كيانهم وشخصهم

مع الزمن . ولقد أصر سيد خان على الحصول على الحقوق والضمانات التي يمكنهم بها ان تحفظ على المسلمين وجودهم المستقل والمنفصل هذا الاصرار أدى به الى صدام مع حزب الكونجرس الهندي الوطني . لقد كانت أفكار سيد خان وآراؤه هي الاسس التي قام عليها بناء حزب العصبة الاسلامية لم يكن سيد خان هو خالق مفهوم الامة المنفصلة للهنود المسلمين . ولكن كان له من بعد النظر والحدس ما جعله يرى هذا المفهوم كحقيقة . وعظمة سيد خان سوف تتضح لأى شخص يتحقق كيف ان قادة الهنود المسلمين الآخرين تجمعوا وبحثوا في الظلام قبل ان يروا النور .

هذه الغريزة لدى مسلمي الهند عملت بشكل عشوائي من خلال قادتهم للحصول على ضمانات بسيطة لحماية مصالحهم التي بدت وكأنها سوف تصاب بالاضرار بسبب الفكرة الاساسية التي تنادي بأمة هندية متحدة - غير ان منطق الحوادث والتطورات بالاضافة الى نتائج العمل العشوائي لغرائز الامتين (الهندوسية والمسلمة) ازال الستار عن الحقيقة التي لم يتجاهلها سيد احمد خان على الاطلاق . ولقد كان في الحقيقة أحد مهندسين بالأساس الاوائل ورغم انه لم يشر الى فكرة (الدولة الاسلامية المنفصلة) في ذلك الوقت كان البريطانيون قد أسسوا أنفسهم في الهند . ولهذا كان أمر التفكير في وجود أمة ذات سيادة واستقلال أمرا بعيدا للغاية وكان من الممكن ان يخلق سوء فهم خطير ضد الامة الاسلامية المنهكة في عقول الحكام البريطانيين الذين كانوا قادرين على انزال أقسى الاضرار بها . ولكن ليس من الضروري ان تكون الفكرة غائبة تماما من عقل سيد خان . اذ ان جمال الدين الافغاني رأى ان مصير أهالي وسط آسيا وأفغانستان ومسلمو الهند في الغرب هو جمهورية تضم هذه المناطق وقد بنى سيد خان نواة صغيرة من القيادة الاسلامية حوله وقد ركز قادة مدرسة عليكره جهودهم نحو العمل التعليمي وكانت اهتماماتهم السياسية تأتي في المرتبة الثانية . وكانت فلسفتهم تنحصر في أن التعليم هو المطلب الاساسي للهنود المسلمين لذلك ركزوا كل جهودهم على ذلك المطلب . وساعدهم على ذلك الميزات الواضحة للتعليم في تلك الايام التي تسبق الوعي الانتباه لهؤلاء الذين كانوا قادرين على الاستفادة منه .

الرخاء الاقتصادي لهولاء الذين كانوا قادرين على الاستفادة منه • وقد كانت مدرسة عليكره بصمن مفيد للغاية • ولكن كان من المستحيل ان يبعد الانسان مكانا يحمية بمنأى بعيدا عن السياسة في عالم كان يشاهد تغيرات هائلة ولقد كان تركيز قادة عليكره على التعليم سببا في انهم اعتمدوا بصورة أساسية على التاييد البريطاني الذي بدونه لم يكن من الممكن للبرنامج التعليمي ان يندفع الى الامام • لقد كان المسلمون في حاجة ملحة الى قيادة ديناميكية اكثر استقلالا في ميدان السياسة ولذلك بدأت مدرسة عليكره تفقد سيطرتها على المسلمين رغم انهم (أي المسلمين) كانوا في ذلك الوقت قد اصبحوا اكثر وعيا بالحاجة الى التعليم الحديث والرغبة في امتلاك موسسات تمتزج فيها القيم الاسلامية بالتعليم الغربي •

وهكذا برز الى مقدمة الصفوف بالتدريج ... ...
لقد أدت الاتفاقية الانجليزية الروسية سنة ١٩٠٧ بنتائج كبار للعالم الاسلامي فطالما كان هناك صراع بين القوى الامبريالية فقد كان من الممكن للدول الاسلامية الضعيفة ان تطيل في عمرها ووجودها على طرفي المتصارعة ... الاخرى ولكن تجمعات جديدة في أوربا نتج عنها تحالفات بين روسيا وفرنسا وانجلترا تضمنت ... الدول الضعيفة وهكذا تأثرت كل من افغانستان وايران والامبراطورية العثمانية ... ورأى مسلمو الهند الاستعباد ... الذي بدأت تقع فيه هذه الدول ... فقد مسلمو الهند حريتهم ولذلك وجدوا المواساة والسلوى في حرية الدول الاسلامية الاخرى • وحيث انه لم يكن لديهم صوت او غاية سياسية يمكن ان يحققونها فقد انهمكوا بنفوسهم في مشاكل العالم الاسلامي • وبدا لهم ان المشكلة الرئيسية التي يعاني منها العالم الاسلامي هي افتقاره الى الوحدة ولقد كان هذا تشخيصا ثبت صحته بشكل اساسي في ثورة العرب ضد الاتراك التي حرضهم عليها البريطانيون خلال الحرب العالمية الاولى وفي تقسيم العالم العربي ثم زرع شوكة اسرائيل في قلب الوطن العربي • وهكذا تثيرة عواطفهم المحتدمة ونزعاتهم

الخيرة والخالية من الانانية فى مسلمو الهند حبا قويا العالم الاسلامى • وبما كان هذا مثل من أحسن الامثلة على الوطنيه التى لم تتدخل فيها حسابات المصلحة الذاتيــــه والتى كانت تقوم على اساس حب للنموذج والمثال وليس عاطفة لتملك بقعه من الارض • وهكـذا محمد ما بعاطفة قوية لانقاذ عالم الاسلام من النكبه التى تكن بعيده عن الرؤيا البشريـه وطبيعة يمتلكها دينية وعاطفيه وشجاعة •كان محمد على مثلا حقيقيا لمسلمى الهنـــد فى هذه المرحلة فيما يتعلق بولائه وآماله ولم يكن يهمه ابدا اذا كانت سياسة ونشاطـــه سوف يضايقان بريطانيا ام لا اذ أنه كان دائم الصراع مع البريطانيين وكانت كتاباته الذكيـه والقوية فى مجلته الاسبوعيه (الرفيق) تقرؤ برغبة حارة ونهم شديد • لقد كتب كثيــر من الكتاب والشعراء عن مجدوا واعلوا من شأن فترة الجامعه الاسلامية ولكن هذه الفكـرة وجدت فى محمد على خادما لها ومحاربا من اجلها •

لقد لمس الشاعر اقبال قلوب الكثيرين من قرائه فى نظرا لدفاعه الفصيح عن الاسلام غير المنقسم ـ الاسلام الموحد هذا الاسلام (كما لاحظ اقبال بحق فى سطوره الشعريـــة) ـ الذى لا يعترف بأية فوارق بجنس او لون او طبقة او لغة او بلد لقد كان شعر اقبـــال وقيادة محمد على من اهم التأثيرات البناءة فى بداية القرن • ان افكارهما وقيادتهمــا قد شكلت (ايدلوجية) مسلمى الهند ا

لقد كانت القوى التى تعمل على انحلال العالم الاسلامى قوية للغايــــة وبدا فى ذلك الوقت ان الشفاء غير ممكن • لقد وضعت الحرب العالمية الاولى مسلمى الهند فى اختبار صعب لقد سجن قادتهم الشعبيين اللذين كانوا يمثلون آراءهم بصـدق وفقدت الامبراطورية العثمانية مناطق ذات قيمة ومتسعة وبدا وكأنه لن تكون دولــة مسلمة ذات سيادة من البقاء على قيد الحياة وفشلت محاولات أنور باشا لاحياء السيادة الاسلامية فى آسيا الوسطى فى وجه الخيانه الداخلية والعدوان البلشفيكى • لـــم يكن هناك شعاع من أمل على الافق المظلم • وعندما انتهت الحرب اطلق سراح محمد علـى

واستدعى الموقف انيشوس منه اعظم الجهود التي كان مسلمو الهند قادرين على القيام بها واعتقدوا انهم لو تذمروا بشدة كافية تمكنوا من التأثير على الرأي العام البريطاني كذلك كان الهنود القوميون حانقين لانهم شعروا ان وعود نقل الحكم الى الهنود يجب الان ان تسترجع وتعود وتحقق لديهم ان مقدار الاصلاحات المطلوبة سوف تحدده كثافة المطالب • كذلك سبب اصدار قانون (رولات) (الذي يؤدي الى سجن الارهابيين المشبوهين والمتآمرين على الحكم البريطاني بدون محاكمة علنية سليمة) بداية تذمر واسع النطاق • كذلك كان اطلاق النار في حديقة (جاليانا والا) في أمرتسار حيث تجمع عدد كبير من الناس في مكان محاط بحائط مرتفع وعدد قليل من المخارج ثم اعلان الاحكام العرفية في أمرتسار ولاهور وانزال العقابات المهينة - مثل الاوامر التي صدرت الى المواطنين الابرياء بان يزحفوا على بطونهم او على اربع كل ذلك آثار ثائرة الرأي العام الهندي •

ولقد اصبحت قيادة الحركة القومية الهندية الان في (موهانداس كارامشاند غاندي) الذي كان تكتيكا ناجحا في اعلان التذمر والاستياء في جنوب افريقيا • رأى غاندي فائدة استخدام عدم الرضى ضد البريطانيين من كل الهندوس والمسلمين ليحقق قضية الحرية الهندية • وفي نفس الوقت رأى محمد علي ايضا ان تأثير حركة تذمر يقوم بها المسلمون سوف تأخذ حجما اكبر اذا انضم اليها الهندوس كذلك ضد الحكم البريطاني وهكذا توحد الزعيمان وواجه البريطانيون نتيجة لذلك تذمر شعبي ذا قوة ضخمة •

وقد رأى غاندي ان مطالب مسلمي الهند بمعاملة عادلة للاتراك لا يلحق الضرر بأي شكل بالقضية الهندية ومن هنا فانه لم ير ان ضرر يأتي عن تعضيده (لحركة الخلافة) على ان رأي بعض قطاعات الهندوس اختلفة ذلك لانهم اعتبروا ان فكرة (الجامعة الاسلامية) خطر على الهند وخاصة على القومية الهندية ولقد كان المسلمون سعداء ان يتم بينهم وبين الهندوس او بين حركة الجامعة الاسلامية وحركة القومية الهندوسية

هذا الزواج السعيد لقد اعتقدوا ان أعظم الاخطار التي تواجه مسلمي الهند تأتـــي من قبل بريطانيا ومصالحها في الهند ولكي تسيطر انجلترا على الهند كان من الضروري عليها ان تسيطر على النقاط الاستراتيجية في الطريق البحري بين بريطانيا العظمـــى والهند ولان العالم الاسلامي يقع في هذا الطريق فان بريطانيا اشتملت رغبتهـــا في السيطرة على العالم الاسلامي وعلى ذلك فان اي اضعاف للسيطرة البريطانيـــة على الهند كان يعني تقليل الضغط الواقع على البلاد الاسلامية المستقلة ، ولقد كانت حريـــة الهند كذلك امرا يستحق كل مجهود لان المسلمين الهنود قد أملوا انهم سوف يكونون شركاء في مثل هذه الحرية مع الهندوس .

ويبدو ان الجماهير المسلمة قد اكتشفت نوعا جديدا من الوطنية فمن سابـــق رغبتهم لأن يروا اسلاما قويا في شبه القارة الهندية تحولوا بكل الاخلاص الى الرغبـــة في التحرر في هذه الفترة .

وهكذا نجد ان حركة الخلافة تعاون التي كانت قد تطورت وتنوعت من تعاليم غاندي المعروف باسم الساتياجراه أو المقاومة السلبية دفاعا وتبريرا لقضية عادلة ، هذه تلتمست البركات والقبول من فقهاء المسلمين لقد باركوها وانفقوا عليها هذا التصاعد العاطفـــي في صالح الحرية والوحدة كان من الصعب بحيث انه بدا انه لن تكون اي مشاكل او عقبات في طريق تحقيق وتطوير مفهوم أمة مشتركة في شبه القارة الهندية

لقد كان المسلمون انفسهم في قمة الشعور انهم قد قدموا اكثر من اي امـــة اخرى في الهند تضحيات اكبر واعظم في سبيل هذا الهدف قضية الامة المشتركة .

لكن هذه الفترة لم تستمر طويلا ، ولقد كان خيبة الظن والوهم الذي جاء فـــي اعقاب هذا الحماس العظيم عظيما ايضا .

عندما بدأ العنف واشتعل في (تشوري تشورا) وأدى ذلك بغاندي الى سحب عدد من الملامح الهامة لحركة عدم التعاون ، فان الحركة نفسها أبدت علامات الضعف

لقد سجن أهم وابرز زعمائها بعد ان حوكموا لسبب سياسى او لاخر فى وقت كان فيـــه معظم القادة الهندوس والمسلمين فى السجون بدأ احد قادة حركة (آريا سماج) وهـــو (شراد هانند) حركتين احدهما كانت تسمى (شودهى) والاخرى (سانجاثان) .
كانت الاولى تعنى (التطهير) وتهدف الى التطهير او التحويل الجماعى لقطاعات كبيـرة من المسلمين الذين يجبان يندمجوا فى الهندوسية . الحركة الثانية كاتعنى (التماسك مما) وكانت تهدف الى توحيد كل الهندوس وتأليفهم فى كيان محارب قادر ماديا ولـه اكتفاء ذاتى اقتصاديا هذا التنظيم كان موجها ضد المسلمين وتحت اعذار متباينـــه نظمت الاضطرابات واشعلت وخولفا التقليد المعترف به باحترام المساجد والصلوات الاسلامية وقوطعت المحلات الاسلامية والباعة الجائلون والعمال واخذ المسلمون على غرة وعلى غيـــر حيطة وبغير انذار لجنون ونجاح هاتين الحركتين وعدم رغبة أو قدرة مثل هؤلاء الزعماء الهندوس الذين كانوا ينادون بالوحدة فى القضاء على هذه الحركات . وحاول المسلمون ان يردوا على ذلك بتنظيم حركات مضادة سموها حركات (التبليغ والتنظيم) ولكنهـــم كانوا ضعافا بسبب ان بعضهم كان لايزال يعتقد فى الوحدة واعتبر مثل هذه النشاطـــات ضارة بقضية الحرية وايضا بسبب فقر المسلمين المادى وافتقارهم الى المصادر الاقتصادية وقد عجز المسلمون اكثر عندما بدوا يقرأون عن خطط استيعابهم فى الحظيرة الهندوسيـــة ومناقشة ذلك علنا فى الصحافة وقد اعلن احد قادة واعمدة القومية الهندية ـ وهو (لاجبات لاى) ان المسلمين طالما انهم مسلمون فلن يكونوا ابدا هنودا صالحين وكان (هار ديال) ـ وهو لورى فى المنفى ـ ان المسلمين يجب ان يسموا انفسهم باسم (الهندوس المحمديون) وان عليهم ان يتسموا بالاسماء الهندوسية وان يتبعوا التقاليد الهندوسية وباختصـــار يجب ان يعيشون على انهم طائفه من الديانه الهندوسية التى تشمل فى طياتها عقائـــد كثيرة متباينه . ولقد مر وقت طويل على المسلمين قبل ان يفهموا معنى واحتمالات هـــذه الاحداث وللبحث عن طريق للخلاص ولمدة عشر سنوات تقريبا ظلوا فى حيرة وعاشـــوا على امل ان الهندوس سوف يتحققون من الحاجة الى الوحدة ويتوقفوا عن التفكيـــر

فى الوسائل التى لن تساعد على الاطلاق على خلق أمة موحدة .

وربما يمكن هنا التساؤل . ما الذى دفع الهندوس إلى افتعال وتعضيد مثل هذه الحركات فى وقت كان مفهوم وأمل الوحدة فى غاية الشعبية ؟ لماذا تعمدوا إلقاء المسلمين فى اليأس من أن يكونوا هنودا صالحين طالما أنهم ظلوا مسلمين ؟ لماذا أختير هذا الوقت بالذات لمحاولة تحطيم مفهوم ومعنى الوحدة ؟ لماذا خضع الزعماء القوميون الهندوس للقوى الجديدة أو لما فشلوا — على الأقل — فى السيطرة عليها ؟

قد يكون من الخطأ توصيف هذه الحركات بأنها تخريبية بمعنى طوال تاريخ حزب الكونجرس الهندى الوطنى لم يتمكن المسلمون بشكل فعال من تشكيل سياسته ؛ ولذلك وقفوا فى معظم الأحيان بعيدون عن الحركة . صحيح أن رجالا مثل محمد على جناح قد برزوا فى مجالس الكونجرس ولكن تأثيرهم كان يعتمد على قدراتهم الشخصية وليس على تأييد شعبى اسلامى . ومع بداية حركة عدم التعاون دخل قادة المسلمين الكونجرس الهندى كقادة للجماهير المسلمة . لقد تعلم المسلمون الآن فن المقاومة الجماهيرية وأظهروا انهم ليسوا أقل من الهندوس فى قدرتهم على ممارسة هذا الفن ولقد سببت يقظة الجماهير الاسلامية سوء فهم فى عقول الهندوس . إذ أن بالنسبة لهؤلاء الذين اعتقدوا فى الرغبة فى استيعاب المسلمين داخل كيان الهندوسية فإن أى وعى سياسى بين المسلمين كان يمثل عقبة خطيرة .

لقد كان — بالنسبة لهم — كبح جماح تأثير المسلمين النامى فى السياسة الهندية بسرعة بدلا من الانتظار حتى يصير قويا ومهما كان فى عقول قليل من الزعماء القوميين الذين اعتقدوا فى التسامح والوحدة فإن جماهير الشعب الهندوسى كان يقودها الغريزه العمياء للهندوسية التى كانت قد نشرت تدريجيا الجمتها وضغوطها العنيفة واستوعبت عقائد وناس آخرون كانوا يبحثون عن مكان للعيش فى الهند . هذا الدافع الغريزى أكد ذاته فى لحظة حرجة للغاية عندما بدا انه من المحتمل أن تقبل

الهندوسية بالتسامح وتسامحها في قبول شريك معها • ولقد صارت حركات (شودهي) و (سانجاثان) شعبية النهاية بين الجماهير الهندوسية وتأثر بها أيضا معظم القادة الهندوس • والقليل من الذين كانوا قادرين على الارتفاع فوق مستوى عواطفهم كانوا بلا حول •

ولقد غير كل من (لاجبات راى) و (هار دايال) عن العقل الهندوسي في موقفه من المسلمين بشكل جادى وبالتدريج أصبح العقل الهندوسي في موقفه أكثر وضوحا انه الآن يرى ان المسلمين لا يستطيعون تحت أى اطار في النجاح مشاركة الهندوس في قومية هندية مشتركة بشروط تضمن لهم مستقبل مشرق لم يكن الأمر ليحتاج الى وقت كي يفهم المسلمون ويتحققوا من الحقيقة الهامة او كانوا قد راقبوا مسار الاحداث بحرص وبثقتهم •

لقد ذكرنا (الحركة البكتية) في موضع سابق من هذا الفصل حيث أشير الى ان هذه الحركة قد أوجدت تفاهما كبيرا بين الهندوس والمسلمين • وقد حاول الحكام المسلمون منذ البداية خلق اتصالات أكثر مع الهندوس لكي يجعلونهم في وفاق مع الحكم الاسلامي • وهكذا نجد هؤلاء الحكام يشجعون الآداب المحلية والوطنية ويشجعون ترجمة التراث العسكري القديم الى الفارسية وأيضا الى اللغات المحليـــة •

وفي مجال المعمار فان الحكام المسلمون لم يترددوا في الاخذ ببعض المناهج الهندوسية وفي الشعر دخلت كثير من المشاعر والتشبيهات • وفي الموسيقى تبنوا أصول الموسيقى الهندوسية وفيما يتعلق بفن الطهى فقد اتضح هذا ايضا عند الحكام المسلمين الذين واقتبسوا من الذوق الهندوسي وكذلك الاعراف اللغة • ولم يصبح الحكام عربا او تركا أو فرسا او أفغان ولكنهم صاروا هنودا ومستقرهم الجديد الذى كان غير اسلامى بشكل غالب بل هندوسيا أصبح وطنا لهم والى هذا الوطن فقد اعطوا عواطفهم

التي يمطليها الناسرلاوالنهم • لقد حاول المسلمون ان يكونوا على مقربة من الهندوس بأكبر شكل ممكن ولكن بدون التضحية بالاسلام لم يكن ليستطيعوا ان يكونوا هندوسا ولأن اتساع أفق الاسلام وعالمية انظاره سمحت للمسلمين بشكل كبير من ان يوحدوا أنفسهم بشعوب شبه القارة الهندية • ولقد كانوا على وعي بتراثهم الديني، ولم يستبدلوا هذا بشيء آخر ولقد كان تراثهم الحضاري ايضا على درجة عالية ولكنهم كانوا راغبين في اثرائه وتقويته اكثر بقبول ما يمكن للهندوسية ان تقدمه بدون تحطيم العناصر الاسلامية لحضارتهم • واذا لم يقم المسلمون على محاولة استيعابهم تيودا وحدودا فقد كان من الممكن ان يفقدوا الاسلام نفسه •

ولقد استجابت الهندوسية لذلك كله • لتنيرأت الهندو الاخرى في تكييف نفسها حسب المقتضيات الجديده ولاجيال طويلة كانت الاخلاق الاسلامية ـ باعتبارها شيء مميز عن الدين الاسلامي نفسه ـ في العرف الاجتماعي للهندوس وكانت الرقة والادب والذوق الاسلامي هو (موده) العصر والناس وقد تطورت الاغراض الادارية والمؤسسات على يد الاداريين المسلمين وظلت هذه الاغراض والمؤسسات سارية ومقبولة حتى بعد سقوط الامبراطورية المغولية • وقد تبنى الهندوس في بلاطاتهم الاتيكيت الاسلامي وفي الاحتفالات وكانت الفارسية ثم بعد ذلك الارديه لغة المتحضرين والمثقفين كل هذه الامور كانت الجسور التي نبتها الحضارتين الهندوسية والاسلامية من اجل انماء علاقات الصداقة • ولكن بظهور نجم جديد في الافق السياسي رأت الهندوسية انه لاحاجة لان ترتب امورها بالنسبة لمغيب شمس الاسلام الذى كان على وشك الحدوث • واصبح كل ما تملكه الهندوسية من قوى التصالح والتوافق متجها الى البريطانيين والى عقيدتهم والى حضارتهم الغربية • وفي محاولة تكييف نفسها حسب الظروف والتحديات الجديدة فان الهندوسية حاولت الاحتفاظ بكل ما في يدها من مقومات حضارتها وهكذا بدأت تتطهر وتهجر كل العناصر التي كانت قد استعارتها من الاسلام • هذا الاتجاه الجديد شجعته وأسرعت به الجهود البريطانية • ومع ذلك فقد كان الامر

طبيعيا للغاية . فعندما ثار كل من الراجبوت والمراتا ضد امبراطورية المغول فقد كان الدافع هو نفس الغريزة التي دفعت الهندوس . وهكذا لم تتسامح الهندوسية الناهضة بصدد كبوة مع اى أثار سيادة الاسلام ان وجود الاقلية المسلمة يمكن التسامح في شأنه على الاكثر ولكن لن يسمح له بالتأكيد أن يغير المسار التي عمت الهندوسية على الولوج فيه لاستعادة مجدها الغابر . ولان المسلمين كانوا يحاولون جهدهم مقاومة كل المحاولات التي ترمي الى اخضاعهم فقد قام صراع بين الهندوس والمسلمين نمى وتداور وكان نتيجته تحطيم وفك كل أعمال القرون الماضية التي اشترك فيها معا رجال سياسة وأولياء ومفكرين وشعراء وغيرهم محاولين بناء تفهما ووحدة بين الشعبين .

ووقف المسلمون وحدهم وحولهم أشلاء وآثار المجهودات الايجابية التي بذلت لمدة قرون . وكان مصيرهم — كما يبدا في البداية — هو الانتقال من مرحلة عبودية الى مرحلة أخرى .

لقد كان المسلمون ضعفاء وغير منظمين ومتخلفين وغير معدين لاى صراع كبير وكانوا يقفون على مفترق طريق المصير دون ان يعرفوا في اى اتجاه يكون الامان ومع ذلك مصممين على الحرب من اجل حقهم في الوجود والحرية .

دراسة تمهيدية فى منهج التاريخ الهندى

ب — وجهة النظر الهندوسية :

خضعت الهند للسيطرة البريطانية فى القرن الثامن عشر • وهكذا لاول مرة فى تاريخها تخضع الهند لقوم غرباء عنها تقع أوطانهم بعيده عن الهند آلاف الاميال ويحكمونها ويتحكمون فى مصائرها • ومثل هذه التجربة فى احتلال البلاد كانت جديدة • فرغم أنه فى الماضى تعرضت الهند لكثير من الغزوات ومن وقت لآخر كانت اجزاء كبيرة من الهند تقع بشكل موقت غير دائم تحت سيطرة الفاتحين فان مثل هذه الاحداث كانت قليلة وعمرها قصير • فمثلا شملت الامبراطورية الاخمينية الايرانية اراضى الحدود الهنديه وتمثلت الامبراطورية من اخذ الجزية من وادى السند والكوشان ايضا مدوا فتوحاتهم حتى شملت كشمير وشمال غرب الهند وحكموا هذه المناطق لاكثر من قرن من الزمان • وكانت غزوات البهلويين والساكاس والهون عبارة عن ظاهرات عابرة فى تاريخ البلاد اما الممتلكات الغزنوية فقد شملت البنجاب كما حكم العرب السند بجانب هذه الحادثات من السيادة والحكم الموقتين تعرضت الهند لغزوات أخرى كثيرة • ولكن اعصار الحملات الحربية للغزاة الذى هب على البلاد ما سرعان ما زال وانتهى • اهم هذه الغزوات الاعصارية كانت غزوات الاسكندر المقدونى تيمورلنك المغولى ونادر شاه الايرانى واحمد شاه أبدالى الافغانى • والغزاه الوحيدون الذين تمكنوا من تشييد امبراطوريات دائمة فى جزء كبير من الهند هم الاتراك فى بداية العصور الوسطى ثم المغول الشفتائى فيما بعد ذلك •

ولقد اصبح الكوشان الذين فرضوا سيطرتهم على شمال غرب الهند هنودا تماما وتبنوا فقد اعتنقوا الديانات الهندية واللغات الهندية واتبعوا التقاليد الهندية •

لقد امتزجوا وذابوا فى المجتمع الهندى • اما الغزاه المسلمين الاوائل الذين جاءوا من افغانستان وآسيا الوسطى فقد كان لهم تاريخ مختلف • فان الجنود والقادة والمثقفون والتجار المسلمون الذين جاءوا فى اعقاب محمود الغزنوى وشهاب الدين غورى أو ظهير الدين بابر — مخالفين فى ذلك الساكاس والهون وغيرهم — لم يفقدوا كيانهم

وشخصيتهم فى الهند . فقد ظلوا متمسكين بديانتهم واحتفظوا بالكثير من عناصر حضارتهم ولكنهم اختاروا ان يعيشوا بشكل دائم فى هذه البلاد (الهند) وقطعوا صلاتهم بأصولهم والقوا بأنفسهم تماما فى خضم الشعب الهندى .

ولقد اضطرتهم مطالب الحياة العملية الى الدخول فى علاقات وصلات اجتماعيه متزايدة مع رعاياهم . وتحت ضغط البيئة الجديده ومن أجل صالح ادارة البلاد فانهم قد عدلوا من مفاهيمهم فى الحكم والقانون والنظام . لقد ألقوا بعيدا بكثير من تقاليدهم وعاداتهم واستدعوا عناصرا من الحياة والحضارة الهندية . ولقد أثرت الهند أيضا بأضافة ديانة جديده الى حصيلتها السابقة من الاديان وتشعبت حضارتها المتنوعة ذات الالوان الجديدة نتيجة انسياب عناصر جديدة فيها .

وهكذا - فبالرغم من ان الفتح الاسلامى سبب كثيرا من التغيرات السياسية والحضارية فى المجتمعات القديمة للهند فان كثيرا من أسس وبناء حضارتها القديمة ظل كما هو .

لقد أعطى الهنود الكثير للقادمين الجدد وأخذوا عنهم كذلك الكثير فى مقابل عطائهم . لقد تعلموا طرقا اجتماعية جديدة قدمها لهم الغزاه وقد أيقظ تأثير الاسلام بتأكيده القوى على الوحدانية المطلقة وفلسفة فى التنظيمات الاجتماعية القائمة على أساس ردود أفعال وثارت وثارت العقيدة الهندوسية والنظم الهندوسية الاجتماعية بحركات انتجت تقاربا فى وجهات النظر والافعال بين الهندوس والمسلمين . وقد كان للغات وآداب المسلمين أثر قوى وعميق على حد سواء على لغات وآداب الهندوس وتدعمت وشاعت فى ارض الهند كلمات جديدة وعبارات واشكال أدبيه وأثرت الفكر الهندوسى مبادئ وأسس جديده ونمت لغة أدبيه جديدة وازدهرت كثير من اللغات المنفصلة بلهجات الآريين واصبحت لغات أدبيه جديدة . وفى مجال العمارة والرسم والموسيقى والفنون الاخرى حدثت تغيرات عميقة وأظهرت طرز جديدة اجتمعت فيها العنصر الاسلامية والهندوسية . وهكذا فان التيار الذى بدأ فى القرن الثانى عشر استمر لمدة خمسمائة عام .

وفى القرن السادس عشر تمكن بابر من تلب الاسرة الافغانية اللودية . اما عن خلفاء بابر فانهم اتصلوا اتصالا عميقا بمصالح الهند وأمورها واتبعوا ـ بشكل عام ـ سياسات أعطت قوة دفع الى نزعات التوحد السياسى والتناسق الحضارى . ولقد كان لاتساع الامبراطورية المغولية وسيطرتها على مناطق كبيرة من الهند أعمق النتائج .

فقد قضت على الامارات القبلية القديمة والدويلات ذات الحكم الذاتى . وهكذا اقضت على تجمعات الوحدات السياسية التى كان حكمها الذاتى يفيد من وقت لآخر على سيادة بعض الامبراطوريات مثل امبراطورية الموريا والكوشان والجوبتا . وخلقت الامبراطورية المغولية من هذه الوحدات السياسية العديدة بنيانا قويا من وحدة أمبراطورية تحكم بشكل مباشر من المركز الرئيسى لها تاركة مع ذلك عدد قليل من الرئاسات وبعض الاقطاعيات المبعثرة وبعض المناطق على الحدود .

ولقد كان الاباطرة المغول ومعاونيهم الحكام أصحاب على قدر كبير من المعرفة والتحضر والرقى فشجعوا الفن والادب وقد أسدى هؤلاء جميعا أجل الخدمات الى اللغات الهندية الحديثة مثل البراجية والاقادهية والبنغالية والمراتية . وكل التى اصبحت فيما بعد المعيات التى حملت العقيدة الهندوسية المنظورة وأيضا صارت الاهداء التى اسهمت فى نشر النظام الدينى المعروف باسم (البكتية) ـ (أو ديانة الحب والخدمة) وصارت سندات الامبراطور وعماله مراكز فن وحضارة وقلد الحكام الهندوس الولايات راجستان ووسط الهند والدكن الانماط التى اتبعها وشجعها المغول .

وكان نظام المغول السياسى والمثل الحضارية للهند يقوم على أسس اجتماعية اقتصادية ظلت (بغض النظر عن بعض التعديلات فى التفاصيل) محتفظة بكيانها التام خلال فترات التاريخ القديم والوسيط . وبدايات هذه الاسس يمكن ارجاعه الى فترات استيطان واستقرار العنصر الآرى فى الهند هذا الاستقرار الاجتماعى الاقتصادى هو العلامة المميزة للتاريخ الهندى فان الانسجام الموجود فى الحضارة الهندية المتعددة الجوانب ينبع من هذا المصدر . وهكذا نجد انه بالرغم من ان فى الهند عديد من الديانات

واللغات والاجناس فان مواقفها الاساسية نحو الحياة قد استمرت طوال القرون والاجيال السنين. هذا في الحقيقة كان يعني خلق الكثير من الحضارات الهندية خلال العصور المختلفة • ومن الحقائق البارزة ان البناء الاجتماعي الاقتصادي للهند - والذى بدأ مع استقرار الآريين واندثارهم في سكان الهند في الفترة قبل الآريه استمر بدون اى تغيير اساسي حتى القرن التاسع عشر • وشئ ذلك هو ان التنافس والتمييز الجنسي في الهند - على عكس ما حدث في اوربا - حدث مرة والى الابد ولم يضطرب الا قليلا في الازمنة المتعاقبة •

وهذا حدث عندما جاءات مجموعة المهاجرين الآريين بشكل منتظم على هيئة موجات عديدة واحتلت الاقاليم المختلفة للبلاد • وفي كل اقليم كان السكان الاصليين اندمجوا بطرق مختلفة في الآريين وبأعداد مختلفة وهكذا قامت في هذه المناطق تكوينات اجتماعية مختلفة • ولكنها كلها تحمل بتفاوت في الدرجة - طابع الآرية • وعندما تكونت هذه التقاليد ونشأت فيها لم تتغير بعد ذلك عن طريق الاستبدال الجنسي او الاضطرابات هذه التقاليد كانت مزيجا من الآرية والدرافيدية والعناصر الاصلية في سكان الهند ولأن الغزوات المؤقته والفتوحات الدائمة لم تؤثر بشكل كبير على السكان فلم يحدث تغيير او تعديل اساسي او فرعى لهذه التقاليد •

ولقد اثبتت هجرات القبائل - مثل قبائل الباتات والجوبار والساكس والهون في العصور المتأخرة انها لم تكن الا تيارات صغيرة اضمحلت في المحيط •

وعندما أسس الفاتحون المسلمون امبراطوريتهم في القرن الثالث عشر دخلت حضارة جديدة الى الهند • عند ئذ تقابل القديم والجديد وحدث تبادل بينهما وهكذا ولد هذا التيار موقفا معقدا •

لقد مر الاساس العنصري والاقتصادي للمجتمع اى تغيير • فقد ظلت القرية تعمل كوحدة ذات اكتفاء ذاتي لحياة جماعة ما • واستمرت كذلك الصناعة والتجارة بدون ان يمسهما اى تعديل اساسي او تنظيم لوسائلهما •

وقد استمر انقسام المجتمع الهندوسي والاسلامي الى طبقتين الطبقة الارستقراطية الحاكمة وصاحبة الارض ذات الامتيازات • وطبقة الجماهير المحرومة من الامتيازات والتي لا تشترك في الاعمال الحكومية • اما النظام السياسي فلم يمسسه أي تغيير • فالروابط التي تربط الحكومة بالشعب مهما كانت قليلة وهشة لان وظائف الدولة كانت الى حد كبير محدودة وهي المحافظة على قيام جيش لاغراض الدفاع ومنع الاضطراب والفوضى وجمع الدخل للانفاق على الجيش • اما التشريع فكان خارج نطاق مهام الحكومة وبالمثل كان جزء كبير من الادارة القضائية ولم تكن هناك هيئات لوضع القانون والقضايا المدنية والشخصية كان يبت فيها وكالات غير رسمية •

اما بالنسبة للدين ، فبالرغم من ان الطبقات الدنيا ظلت متشبثة بالخرافات والشعوذة قليلة التأثر فقد كان هناك كثير من الاخذ والعطاء • فقد ظهرت طوائف وعقائد جديدة بين الهندوس وذلك بتأثير الاسلام واعتنق كثير من المسلمين من ذوي الآفاق الواسعة من الصوفيين والعلماء افكار الفلسفة الهندوسية المتصلة بالنطاق الانساني الداخلي (أقصد الروحاني والتأملي والباطني) • وفي مجالات الادب والفن المختلفة كان هناك اندماج شديد بين الطرازين الهندوسي والاسلامي ولكن في مجال القانون كان التبادل والاخذ والعطاء قليلا للغاية •

لقد وجد التصالح والتقارب الحضاري بالتأكيد ومع ذلك فقد فشل في خلق وعي قومي اذ ان النطاق القاسي الذي احتوى المجموعات البشرية في الهند لم يكن ليسمح لهم بالانصهار معا • ولم تشجع الدولة أو تحاول تنمية هذا الوعي واذا نحينا جانبا تلك العلاقات والاتصالات التي قامت ونمت بين الشعوب نتيجة لحياتهما ومعيشتهما معا على نفس الارض فان المجهودات المقصودة لخلق شعور الوحدة كانت قليلة • ولم تسبب او تشجع ايضا القنوات الاقتصادية والاجتماعية مشاعر الوطنية المتصلة بالارض او معنى توحد الفرد وانتمائه الى كل سكان الارض •

وفي بداية القرن الثامن عشر بدأ البناء المغولي في التحطم والانهيار ومع مرور سنوات القرن كان الانحلال يزداد سرعة • ولقد كان لضعف السلطة المركزية أثره على الحياة الاقتصادية للدولة فقد بدأ الدخل ينخفض والمواصلات تضطرب وأصبحت الصناعة والتجارة والزراعة منكمشة في نطاق محلي • لقد بدأت قوى التفرد تسيطر فالنظام والقانون اختلا والاخلاق العامة والراحة اهتزت وتفتت الامبراطورية الى اجزاء وتبعثرت قوتها فيما يتصل بمجابهة ومقاومة محاولات الاستيلاء الداخلية والخارجية •

وفي ذلك الوقت بدأت الامم الاوربية عن طريق وكالاتها في التدخل في الشئون الهندية • عندما رسا فاسكودي جاما سنة ١٤٩٨ بميناء كاليكوت بدأ عهد جديد في العلاقات بين آسيا وأوربا • وانتهى عهد الدفع والجذب في التنافس بين القارتين في القرن الخامس عشر بانسحاب المسلمين (المور) من اسبانيا واندفاع جديد للاتراك في البلقان • ولقد جاب البرتغاليون والاسبانيون المحيطات في محاولتهم اقتفاء أثر والقضاء على قوة المسلمين و اولو ربط القوى المسيحية في الشرق بمملكة (برستريون) الاسطورية في الجبشة - وهكذا بحركة كماشة حاولوا دحر مسلمي شمال أفريقيا وغربي آسيا وفي محاولتهم تحقيق أغراضهم الاستراتيجية فانهم أبحروا حول أفريقيا وعبروا البحر العربي ثم ظهروا على الساحل الغربي للهند •

ولقد كان للمغامرة البرتغالية آثار بعيدة المدى :

فأولا أبعدت البواخر التركية والعربية عن المياه الهندية وبالتالي أنتهى عهد الاتصال التجاري الدولي الذي استمر بين الهند وجيرانها في غرب آسيا منذ عهد الخلافة العباسية وقبل ذلك • لقد كانت صادرات وواردات الهند تنقل في بواخر هندية وآسيوية • تحول ذلك الآن الى السفن البرتغالية وهكذا حلت ضربة قاصمة بصناعة الشحن الهندية •

ثانيا : نتيجة لتوقف النشاط البحري الهندي في علاقات الهند بجنوب شرق آسـيا قطعت وتيرجه البلاد غرب منطقة نهر الجانج من بورما الى أندونيسيا من نطاق النفـوذ الهندى وهكذا انتهى فجاة تقدم الحضارة الهندية الذى كان قد ألهم تايلاند والهند الصينيه واندونيسيا بمنجزاتها الاثرية الرائعة فتلك المنجزات التى ساعدت على اقنامة وانضاج الامبراطوريات المنظمة لتقفز عبر الملايو وسومطره وجاوه وجزر الارخبيل الشرقـي والتي كان من نتائجها ظهور ديانه جديدة وحضارة بين أهالي هذه المناطق • وفـوق كل شيء فان ظهور البرتغاليين على الساحل الهندى كان نذير شر مستطير •

بدأت أوربا ـ ناهضه واثقة من نفسها ومتحولة الى نشاط دائب بفضـل الاكتشافات الجديدة في العلوم وبفضل المثل الجديدة عن كرامة الانسان وتضامن المجتمع • وبفضـل رؤية جديدة للتقدم المادى والقوة القومية ـ تدق على ابواب أغنى البلاد في الشـرق ولكن عند أكبر المغلـم وشاه جهان المعظم ـ بثروتها الفائقة وفنها ذائع الصيـت وحضارتها العريقة الخاطفة للابصار ـ كانت قد فقدت ديناميكيتها في القرن الثامن عشر لقد صارت خليط مركز جامد ينتمي الى العصور الوسطى من القرى والطبقات الاجتماعيـة والعشائر والقبائل والامارات المرتبطة بأوهى الروابط تحت السيادة الاسمية للامبراطور المغولي • لقـد كان الاقتصاد الهندى زراعيا وكان تكنيكه بدائي ومنظماته قاصرة وهدفـه الانتاج لاقامة الاود • وكانت الصناعه الهندية تنتظم على نطاق صغير ومصممة اما لانتاج الكماليات التى يستعملها الاغنياء او لاشباع المطالب الاساسية للسوق المحلي • ولعبت النقود دورا غير مهم في الصناعة وتطويرها • وفى مقابل هذا كله كانت أوربا تتطـور وتنمى أسواقا عبر المحيطات وتستورد النقود الامريكية من ذهب وفضـه التى حفزت وشجعت التجاره والصناعه • تحت الحاح رأس المال المتزايد بسرعة كان التخصص ينمو واصبح التاجر وصاحب البيت المالي في مكان السيادة بعد كان ذلك لطبقة ملاك الارض • اما عن عقل الهند فلم يكن قد أثير بعد بوساطة الحركة العلمية النقدية التى كانت قد حررت العقـل الاوربي وأثارت حركة الكشف والاختراع • ولم يتأثر السلوك الاجتماعي ذو الفردى الهنـدى

بالعواطف والاحساسات القوية التى كانت تحول المجتمعات الاقطاعية المستبدة فى أوروبا الى أمم مدعمة وحسنة التنظيم . ولقد كان عصر الدين فى أوروبا فى طريقه الى الزوال وكان عرش العقل يتبوأ مركز السيادة . اما فى الهند فقد كانت نظرة ابنل العقول الى الحياة نظرة غير دنيوية ... نظرة الى العالم الاخر وكانت أقصى امانيهم الاتحاد مع القوة العظمى ..... الله .

لقد كان القرن السابع عشر هو فترة قمة مجد الهند قمة حضارتها المنتمية للعصور الوسطى وعلى كل حال فبينما كانت القرون يتلو بعضها بعضا كانت شمس المدنية الاوربية تتقدم بسرعة نحو منتصف السماء فى الوقت التى بدأت فيه سماء الهند فى الاظلام وسرعان ما حل على ارض الهند واستطالت ظلال الفوضى الاخلاقيه والاضطراب السياسى .

وقد توسعت البرتغال الى أقصى حد للاحتفاظ بأمبراطوريتها ولكن عندما صارت من ممتلكات التاج الاسبانى سنة ١٥٨٠ فانها خرجت من السباق وظهرت اسبانيا فى بداية القرن السابع عشر وكأن العالم اقدامها ولكن اقتصادها الفاسد وتعصبها الدينى ضيق الافق وضعها فى عديد من المشاكل وتمكنت دول صغيرة ولكن نشطة مثل مملكة الاراضى المنخفضة (هولنده وبلجيكا فيما بعد) ومثل فرنسا ومثل انجلترا من ان تطأ كبرياء اسبانيا تمكنت هذه الدول من ان تطارد الاسطول الاسبانى فى البحار وان تسيطر هى على الامور وبالتدريج خرجت الاراضى المنخفضه من السباق ايضا . ومنتصف القرن الثامن عشر بقيت فرنسا وانجلترا وحدهما فى الميدان . وفى المراحل الاولى بدى ان فرنسا تسبق انجلترا الى الامام فان سياستها الجريئة والجديدة جعلت نفوذها قويا فى الدكن . ولكن سرعان ما امتد ظل الصراع الداخلى الذى انفجر بالثورة الفرنسية ١٧٨٩ عبر المحيطات وحرمت وكالات فرنسا فى الهند من التعضيد والمساعدة المستمرة من حكومة الوطن والتى بدونها فان النصر النهائى لم يمكن التوصل اليه . وقد كانت حرب السبع سنوات بمثابة عامل كبح حاسم لمطامع فرنسا . وهكذا اصبح الميدان فى حوزة انجلترا وحدها لقد

تعلم الانجلز الوسائل التي اخترعها الفرنسيون ولكنهم فاتوهم في تطبيقها • لقد استفادوا بشكل كبير من ضعف وعناء وأخطاء الحكام الهنود واصبحوا سادة لكل الهند بمساعدة الهنود انفسهم • ولقد انطوت السيادة على المسؤلية • لقد ظهر الانجليز على المسرح لجني مكاسبا من التجارة وقد استغلوا الدخول الزائدة من خزائن الدولة واستثمروها في الانتاج وفي شراء البضائع الهندية التي قاموا بعد ذلك بتصديرها •

ولقد دعت مطالب التجارة ومع اضطراب الارض الى انشاء هيئة للارادة (تمثلت فيما بعد في شركة الهند الشرقية) وهكذا حدث ان الهند وقفت تواجه انجلترا — الهند تحمل فوق اكتافها عبء قاتل لنظام اجتماعي على وشك الموت ره ومع ذلك فقد كانت لا زالت حاملة لواء ترف بالفن والادب والفلسفة والدين • وانجلترا بلد منتصر فخور ومتقدم بلد حديث في معنوياته وقيمه وتركيبه المادى •

هذا اللقاء — لقاء الشرق بالغرب — انتج نتائج كانت متناقضه بشكل غريب فهي خليط من الخير والشر •

أول هذا النتائج كانت تحول الاقتصاد الهندى الى اقتصاد بريطانيا • وفي نفس الوقت ازداد على ارض الهند الفقر والسكان والضغط على البلاد وهكذا كان يتم افتتاح عهد جديد يمكن تسميته باسم الثورة المادية •

ثانيا : تحرك العقل الهندى الى اعماقه • فمن ناحية كان روح التساؤل (خاصة تساؤل السلطة) قد ولدت واستوعبت الوسائل العلمية الغربية ومن ناحية اخرى قويت النزعات الاحيائية ونمى نوع من الفخر بتقوى الاجداد ونتيجة لذلك تيقظ الوعى القومى • وكنتيجة طبيعية فقد بدأت تنمو الرغبة في الحرية ممثله في دولة مستقلة ومسئولة وديمقراطية •

ولكن هذه اليقظة وهذا الوعى صاحبته هيئة شريرة للمشاعر الطائفية والامية •

لقد تمتعت الهند باستقلال عن السيادة الاجنبيه لفترات طويلة في الماضى ولكن الحرية كانت مفهوما جديدا • وربما في الحقيقة ليس مفهوما جديدا كل الجده لان الفلسفة

الهندية (الهندوسية والبوذية والمسلمه) كانت على معرفة واعتياد لفكرة الحرية الداخلية للروح في الحقيقة كانت الحرية فكرتها الرئيسية ولكن الحرية فى نطاق المجالين الاجتماعى والسياسى كانت فى الحقيقة الهاما جديدا وهى مفهوم جديد بهذا المعنى •

ان تحول الهند ونمو الوعى القومى كان نتيجة لتأثير الغرب • ولكن فى الغرب نفسه كانت القومية ظاهرة حديثة • ولقد كانت الظاهرة فى القرن الثامن عشر قاصرة على تلك الدول الاوربيه فى اقصى غرب القارة • ثم انتشرت منذ ذلك الوقت فى خلال القرن التاسع الى اوربا الوسطى والشرقية وبعد ذلك الى كل بلاد العالم •

اية ظهور المجتمعات القومية فى أوربا يمثل أحد ث مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى • لقد بدأت أوربا بالاقطاع ثم فى القرن السادس عشر تحركت الى نظام يقوم على اساس التجارة وبعد منتصف القرن الثامن عشر تقدمت انجلترا الى الرأسمالية الصناعية والقومية •

والهند — من ناحية أخرى — احتفظت حتى نهاية القرن الثامن عشر بالنظام القديم الذى يمكن مقارنته بنظام الاقطاع الاوربى • ثم حطمت صدمة تأثير الغرب البناء القديم واجبرته على التغيير الذى انتهى بالحرية ويمثل هذه الحركة العالمية مثال للحقيقة التى تقول ان التاريخ لايمكن دراسته بشكل اقليمى ضيق الافق ومهما بدى ان الناس الذين يعيشون فى مناطق متباعده منفصلون الا انهم بالتأكيد معرضون لتأثيرات تعبر قساره الى اخرى وبالتالى فانه ليس من الممكن ان نقوم بدراسة تطورات احد البلاد بشكل منفصل تماما عن الاحداث فى المناطق الاخرى من العالم •

ان التاريخ بشكل اساسى هو تاريخ العالم ومن وقت ظهور الانسان على الارض فان الانسان وقع تحت تأثير ليس فقط البيئة المادية ايضا البيئة الانسانية • ولتلك الاسباب من المهم دراسة تاريخ المجتمعات الغربية وتتبع نمو القومية من بداياتها حتى اكمالها لمعنى فهم ظهور القومية والحصول على الحرية فى الهند •

التوسع الاوربي

انطلق المجتمع الرأسمالي الاوربي نحو التوسع في جميع انحاء العالم يحفزه الى ذلك منطق طبيعته في البحث عن المواد الخام اللازمه للصناعة وفي العثور على اسواق جديدة لانتاجه الصناعي . وفي هذا البحث وصل المجتمع الرأسمالي بتوسعه الى الهند . وتمكنت انجلترا اكثر الدول الاوربيه الرأسمالية تقدما من فرض سيطرتها على البلاد وأوجدت فيها قوى حركة عملت على تحولها . وهكذا – مضطرة – عبرت الهند الطريق نحو القومية وكافح الهنود طويلا – بعد ان تيقظوا ونشطوا نتيجة ظهور الوعي بالوحدة القومية – للحصول على الحرية .

ان الضوء الذي يزودنا به تاريخ التطور الاوربي الاجتماعي – يساعد على تفهم ماضي الهند ففي الفترة التي سبقت مجيء الاوربيين كانت سرعة ونغمة التغيير التاريخي تأخذ طابعا متلائما تماما مع الهند . لقد كانت حركة هذا التغيير بطيئة لان احوال الحياة كانت جامده . فالسكان كانوا اما ثابتين دون حركة او ان ارتحالهم تجد مخرجا لها في المناطق الشاسعة غير المأهوله للبلاد . وكانت وسائل الانتاج ثابته على حالها وكافية بالنسبة مطالب الناس المتواضعه . وكان التقسيم الاجتماعي لا يمكن تخطيه بينما كانت حركة خاصة لحركة اليقظة الاجتماعية غائبه . (الاستقرار الاجتماعي غالبا) .

ثم وجد الهنود أنفسهم في منتصف القرن الثامن عشر في صدام عنيف مع مجتمع غربي ديناميكي مختلف تماما عنه في مختلف نواحي المدنية ونتيجة لذلك بدأت التأثيرات الغربية في العمل بقوة هائلة وعظيمه هذه التأثيرات أسرعت بتيار التغيير الاجتماعي وأنتجت نتائج مشابهة لتلك النتائج التي خبرتها أوربا من قبل .

لقد بدأ في الهند بعد فوات أورانجزيب عهد من الانحطاط السريع ومنتصف القرن الثامن عشر تحطمت تماما السلطة المركزية تاركه المجال للفوضى والاضطراب

ولسوء الحظ لم يكن هناك فرد او مجموعه يمكن ان تحل محل الامبراطورية المغوليـــة وتحفظ وحدة البلاد .

وهكذا نجد ان الفراغ السياسى الذى وجد بهذا الشكل قد دعا فيض من القوى الاجنبية وتحت ظروف مماثلة فى الماضى فان هذا الفراغ كان يجد دائما من يملأه من غزاة آســيا الوسطى ولكن فى القرن الثامن عشر كان جيران الهند فى الشمال الغربى فى قبضة صــراع داخلى . وبالرغم من ان نادر شاه سنة ١٧٣٩ واحمد شاه أبدالى بين ١٧٤٨ ، ١٧٧٣ قد قادا حملات حربيه داخل الهند حملات أنزلت ضربات قاصمه مميته بالكيان المغولـــى المهتز ، الا ان الاحوال الداخلية فى ايران وأفغانستان وأوسط آسيا لم تكن ملائمة لتكــرار منجزات محمود الغزنوى وشهاب الدين غورى وبابر .

وهكذا كان الظروف فى صالح الاجانب عبر البحار ليبسطوا سيادتهم على الهند . ولقد كان هناك منافسون عديدون بينهم . ولكن فى النهاية هزم الانجليز كل منافسيهم الاوربين وأخضعوا الهنود لحكمهم ومعركة (بلاسى) سنة ١٧٥٧ ارتفع الستار وبدأت دراما حادة ومؤلمة مليئة بالانفعالات الانسانية وقد تم التصديق على آخر منظر فى هذه الدرامـــا فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ .

ولقد كانت الدراما ملحمة فى الحقيقة . وقد استمر عرضها لمدة قرنين مـــن الزمان وكما فى كل الدرامات الاخرى فان العناصر الاساسية لمحتويات الدراما كان هــو الصراع العنيف بين القوى المادية والمعنوية ومقدمة الدراما ترجع الى الوراء الى العصــور القديمة ولكن تاريخ الاحداث للملحمة الدرامية يبدأ فى سنوات القرن الثامن عشر الاولــى عندما كانت الهند القديمة تتداعى وبدأت قوى جديدة تأخذ طريقها وتسيطر .

وعرض الدراما يأخذ ثلاث فصول فى الفصل الاول تظهر الهند كدولة خذلتهــا قوتها المعنوية وانحدرت أسمى صفاتها تأخذ طريقها نحو فقدان استقلالها . وفــى

الفصل الثانى توقظ الصدمة التى لحقت الهند على يد مدينة مختلفة تماما روحا جديدة تقلق راحة بقايا نظامها القديم وفضائها وتحاول خلق بخط جديد من الحياة وفى الفصل الثالث والاخير - نجد الهند بعد ولادتها من جديد - تسير بثبات وانتظام فى اتجاه التحقق الذاتى والحرية .

شـــــركة الهند الشـرقيـة

=========

فى القرن السابع عشر أقامت شركة الهند الشرقية الانجليزية مراكزا تجاريـــة لها على ارض الهند وفى القرن الثامن عشر حصلت الشركة على نفوذ ارضى (بمعـــنى انها استولت على مناطق خضعت لنفوذها فى أرض الهند) ولقد كان هذا الاتجـــاه طويلا فضلا عن كونه بارزا ومثيرا .

اسست الشركة فى آخر يوم من عام ١٦٠٠ . وكان الغرض من انشائها التجارة . و التجارة فقط . فقد كانت اوربا فى حاجة الى توابل الشرق التى كانت تستوردها من الشرق منذ أمـــد طويـــل .

وكانت هذه التجارة تمر فى العصور الوسطى بالخليج الفارسى والبحر الاحمـــر والاراضى المجاورة فى الشرق الاوسط . وقد حاولت البلاد الاوربية مع ذلك البحـث عن طرق اخرى بديلة للطرق التى كانت هذه التجارة تمر بها . ولقد تمكن البرتغاليـــون من اكتشاف احد هذه الطرق البديلة بعد جهود طويلة فى عام ١٤٩٨ (وطوال القـــرن السادس عشر تمتع البرتغاليين باحتكار التجارة مع الشرق وبالسيادة على المياه الشرقيـة وقد حاولوا حماية احتكار هذه التجارة واحتفظوا بهذا الوضع عن طريق القوة .

وفى القرن السابع عشر تضعضع النفوذ البرتغالى . وكنت علاقات البرتغال واسبانيا السياسية بحارتيهما للدول الاوربية الاخرى من الدخول الى ميدان التجارة الشرقيـــة والمغامرة . ولقد كان الهولنديون اول من وصل . ولما كان غرضهم الحصول على التوابـــل الشرقية فقد ركزوا نشاطهم فى الخليج الشرقى للهند الذى كان غنيا بهذه التوابـــل وبمرور الوقت تمكن الهولنديون (وكانت البرتغال وأسبانيا خصمين لهولنده فى الميـــاه الشرقية) من تأسيس أنفسهم بشكل آمن فى اراضى الهند الشرقية . وتحت قيادة حاكمهم

القديركوين Coen تمكنوا من رسم سياسة تقوم على السيطرة والاحتلال للاراضى التى كانت تنتج السلع التى كانوا يحتاجون اليها ووصل الانجليز بعد ذلك على المسرح الشرقى وكانوا هم ايضا مهتمين بتجارة التوابل ولذلك فقد كان غرضهم ايضا تأسيس مصانع فى جزر الهند الشرقية • ولم يكن البرتغاليون الذين كانوا قد دعموا أنفسهم ايضا راغبين فى السماح لأى قوة منافسة أوربية فى ان تستولى على مراكز التجارة التى كانوا قد أسسوها نتيجة لنشاطهم الحربى والسياسى ضد اساطيل البرتغال واسبانيا من ناحية وضد القوى الوطنيه من ناحية اخرى وكلفتهم غاليا فى المال والرجال • ولم يكن الهولنديون كذلك راضون بان يشاركهم غيرهم من الاوربيين ثمار انتصارهم • ولم يجبرهم على غير ذلك اى ضغط من قبل السلطات الهولندية نفسها فى هولنده لم يستطع هذا الضغط ان يقنع ممثلى الهولنديين فى مناطق احتكار التجارة على السماح للتجارة الانجليزية بأن تعمل فى مناطق نفوذهم السياسى والتجارى •

وقد أدت العلاقات الدولية فى اوربا التى تقارب كبير بين كل من انجلترا وهولنده • ولكن هذا التقارب لم يترجم الى عمل على مسرح التجارة الشرقية • ولكن احد محاولات التعاون الخطرة أدت فى النهاية الى حادث عرفه الانجليز باسم (مذبحة أمبوينا) فقط طرد الانجليز من (لانتور) ومن (بولو رون) فى ١٦٢١ / ٢٢ بالقوة وتمكن حاكم امبوينا الهولندى من القبض على (تورسون) الوكيل الانجليزى وثمانية عشرة انجليزى آخر وكذلك بعض الجنود اليابانيين واتهموا بمحاولة القيام بانقلاب للاستيلاء على القلعة الهولندية • وبعد ان عذبوا أعدم (تورسون) مع تسعة آخرين انجليز وتسعة من اليابانيين سنة ١٦٢٣ ولتستمر الهولنديون طوال القرن السابع عشر فى عرقلة الجهود الانجليزية بنجاح وعدم تمكينهم من تدعيم أنفسهم أو بأى ضمان لهم فى جزر انتاج التوابل •

وعندما فشل الانجليز فى تأسيس علاقات تجارية على نطاق واسع مع جزر التوابـــل اتجهوا بشكل خطير نحو ارض الهند •

لم يكن هناك تخطيط بل كان الامر بحكم الظروف التى مكنتهم من تركيــز انتبـــاهم نحو التجارة مع شبه القارة الهندية وهكذا نتيجة لفشلهم وهزيمتهم بالنسبة لهدفهـــم الاصلى فانهم اتجهوا نحو بديل آخر أقل جاذبية وهو الهدف فى انشاء مراكــز تجاريــة على ارض الهند وليس فى المياه المجاوره • وقد كان ذلك نقطة هامة وبارزه فى تاريـخ شركة الهند الشرقية فى القرن السابع عشـــر •

لقد تمكنت الشركة من الحصول على الاذن لها باقامة احد المصانع فى (سـورت) Surt بعد ان هزم كابتن (بيست) اسطولا برتغاليا بالقرب من سوالي Swally سنة ١٦١٣ • وفى سنة ١٦٢٢ تمكنوا من الاستيلاء على (أرموز) فى الخليج الفارســى من يد البرتغاليين وتمكنوا كذلك من اقامة مصنع آخر فى (ماسوليباتام) وفى سنة ١٦٣٣ اقيمت المصانع فى (بلاسور) و (هاريهاربور) • واشترى (فرانسيس داى) مـــوقع حصن القديس جورج فى مدراس من (بننت شاندراجيرى سنه ١٦٤٠ وفى ١٦٦١ حصلت الشركة على جزيرة بومباى من تشارلس الثانى بايجار اسمى يبلغ عشرة جنيهات فى السنة • وبعد عدة تغيرات كان الحظ فيها حليف الانجليز فى البنغال تمكن (جوب تشارنوك) ان يقيــم مصنعا فى كلكتـــا وفى سنة ١٦٩٦ بنى حصن وليام هناك وانتقل حق السيطرة الماليـــة (زميندارى) على القرى المجاورة الثلاث (سوتانوتى ، كاليفات ، جوفندبور) الى يـــد الانجليز بعد ان اشتروا هذا الحق من فوجيدار منطقة (هوجلى) • ومع بدايـــة القرن الثامن عشر أكملت الشركة اقامة شبكة من المصانع على ارض الهند وكان مركز هـــذه المصانع فى كلكتـــا وفى راس وبومباى وايضا اقيمت عدد من محطات صغيرة مما وبـــه انتشر على سواحل (مالابار) و (كوروماندل) وايضا فى داخل القارة فى بلاد الامبراطور المغولى وحكم القادة المسلمون والهندوس فى الهند •

وازدهرت التجارة وازداد نماء الشركة وثروتها وتعتبر الاعوام من ١٦٦٠ الى ١٦٨٠ العصر الذهبى للشركة • وبلغت سندات الشركة سنة ١٦٨٣ ، ٣٦٠ سندا اما الاسهم فيما بين عامى ١٦٥٩ ، ١٦٩١ فبلغت رباحها ٢٥% فى العام • وقد أسس الانجليز موجة من التجارة فقد استوردوا (السبوليون) من انجلترا وصنعوه على شكل سلع رفاهية • هذه السلع كانت تباع للهنود الامراء والنبلاء ومن الهند اشترى الانجليز الافيون والقطن والمنسوجات القطنية ثم يصدرونها الى ساحل الصين حيث كان لهم سوق تجارى ومن الصين كانوا يشترون الحرير هذا الحرير ومعه الافيون الهندى والملابس كانوا يبيعونها فى موانى الارخبيل الشرقى حيث ليس للهولنديون أى اهتمامات او مصالح أو حيث اسمحوا للانجليز ان يعملوا هناك • ومن هذه الجزر كانوا يأخذون التوابل الى انجلترا بشكل اساسى وليس ايضا الى بعض مناطق شبة القارة الهنديـــة •

ولقد ظلت (سورت) مستوطنتهم او مركزهم الرئيسى فى الهند حتى سنة ١٦٨٧ عندما صارت بومباى هذا المركز وفى منتصف القرن الثامن عشر احتلت كلكتا نهائيا هذا المركز الرئيسى • ولكن ظلت كلكتا ومدراس وبومبان مراكز لثلاث مناطق مستقلة حتى سنة ١٧٧٣ وخلال القرن السابع عشر وفى بداية القرن الثامن عشر فاننا نجد أن المستوطنات الاوربية على سواحل شبة القارة الهندية بشكل عام وفى المستوطنات الانجليزية بشكل خاص تمر بزيادة ملحوظة فى الحجم والتعداد السكانى والتقدم والثراء وبدأت كلكتا ومدراس وبومبان تنمو الى مدن كبيرة بعد أصلها المتواضع فى التعداد السكانى وتموج بالنشاط ولقد كان هناك أسباب خاصة لذلك •

لقد كانت شبة القارة الهندية تمر بفترة ضياع وفوضى وفى ذلك الوقت قدمت المستوطنات الانجليزية آمال للتقدم والسلم للسكان • لقد كانت الدكن خلال عهد الامبراطور المغولى عالمجير ثم كل شبه القارة بعد وفاته • فى حالة اضطراب سياسى عنيف • ولقد كانت حالة الخراب والحرب عامة فى كل مكان وانتشرت التحركات المضادة لجيوش

كثير من الامراء والنبلاء والثوار وكانت عامة وكانت الثورات هي الظاهرة السائدة في كل مكان اما المراتا فكانوا ينشرون خرابهم ودمارهم في كل مكان لقد هاجموا التارنات سنة ١٧٤٠ ودمروها تحت قيادة قوادهم (فاتح سنج) و (راجو هوجي بونسل) • وظهر الغزاة الاجانب على مسرح الاحداث • اذ قام نادر شاه بغزو شمال الهند سنة ١٧٣٩ وعصف بمدينه دلهى • وقد تبع ذلك بسلسلة غزوات من الشمال الغربي بدأها • احمد شاه أبدالي ثم زمان شاه • وبالمقارنة بهذا كله نجد ان المستوطنات الانجليزية قد كانت تمثل الجنة على الارض في ذلك الوقت • وبدأ الناس من المناطق المضطربة وخاصة العائلات التي كان في يدها ما تفقده — في الهجرة الى المستوطنات الانجليزية واصبحت هذه المستوطنات مدن واسواق تجارية كبيرة لتجارة ما وراء البحار وشبة القارة الهندية وازدهر رجال البيوتات الماليه والتجار وأصحاب المصانع المنتجون في هذه المستوطنات • وخلال القرن والنصف قرن لوجودها • كان على شركة الهند الشرقية أن تواجه عديد من الظروف الصعبة والنكبات المالية في الداخل وفي الخارج ولكنها استطاعت ان تخرج من هذه الازمات غنيه وذات تأثير وقوية ولكن صارت مؤسسات تجارية • لقد كان هناك على كل حال اشارات قوية ودلائل لهذا التغيير • فحتى في القرن السابع عشر فان مديرو الشركة بعيد و النظر كانوا قد رسموا لانفسهم سياسة اختيارهم موظفيهم بدقة وحرص وتقدير بالغ لقدراتهم الادارية • وبعد الميثاق الذى منحه للشركة الملك جيمس الثانى فان المديرين بدأ يفكرون في الشركة على انها (مثل ذات سيادة في الهند) • ويحوى الامر المشهور والسائد الى رئيس الشركة ومجلسها في الهند القاضي بانشاء (مؤسسة وسياسة ذات قوة حربية ومدنية وخلق وحماية الدخل المالي الكبير ••• حتى يكون ذلك اساس سيادة انجليزية قوية ومنظمة في الهند في المستقبل وهذا يظهر بوضوح ان الانجليز رسموا لانفسهم هدفا انشاء قوة ارضية في شبة القارة الهندية •

ومهما يكن من أمر فان المغامرة بشن حرب ضد الامبراطورية المجير وما جرته هذه المغامرة من هزيمة ساحقة واذلال أيقظت الشركة لبعض الوقت من أحلامها وطموحها

وهكذا استغرقت الشركة في اعمال تجارتها باذلين جهدهم في تجنب توريط أنفسهم في السياسة الهندية ومهتمين بشكل حماس بادارة ورعاية نفوذهم ومصالحهم الخالصة وفي خلال حرب الوراثة الاسبانية توصل ممثلوا الشركة في الشرق الى تصالح واتفاق مع جيرانهم الفرنسيين في المستوطنات الفرنسية مما مكنا الطرفين من ان يظلا في سلام بينما انجلترا وفرنسا نفسيهما في حرب ضد بعضهما في اماكن أخرى ، وذلك حتى يتمكنوا من الاستمرار في نشاطهم التجاري العادي .

وفي عام ١٧٥٧ ظهرت الشركة بشكل أكيد على انها قوة سياسية وارضية وكانت سنوات هذا التحول هي السنوات ما بين ١٧٤٤ ، ١٧٥٧ . هذا التغيير تم مره أخرى ضد ارادة الشركة فقد كان الفرنسيون اول من بدأ في التدخل في السياسة الهندية وكان الطموح الفرنسي في الهند وتبعا لذلك الحروب الانجليزية الفرنسية التي أدى اليها هذا الطموح هو الذي أجبر شركة الهند الشرقية ان تحمل السلاح لكي تحمي مصالحها التجارية .

لقد وصل الفرنسيون متأخرون على مسرح التجارة الهندية فقد كانت الامة الفرنسية مشغولة في سياستها المتصلة بالقارة الاوربية وكانت الطبقة الفرنسية التجارية فقيرة وصغيرة وضعيفة النفوذ اذا ما قورنت بما يقابلها من الطبقات التجارية الانجليزية والهولندية .

ولقد تم تأسيس الشركة الهندية الفرنسية بتشجيع من الحكومة الفرنسية فقد أقامت مستوطنات ومراكز تجارية في الشرق بتشجيع واسهام ورعاية من الملوك الفرنسيين والوزراء تعضد تأسيس هذه الشركة . وقد بنت الشركة مصانعها على الساحل وعلى الانهار الملاحية وفي داخل البلاد وكانت أهم مراكزهم ومستوطناتهم في (شاندارنجور) في دلتا نهر الجانج وفي (بوند شيرى) على ساحل (كوروماندل) . وفي كلا المكانين كان الانجليز جيرانا غير بعيدين للفرنسيين .

ومن عام ١٧٢٠ الى ١٧٤٠ شارك الفرنسيون جيرانهم الاوربين تقدم ورخـــاء ملحوظين ولم يسبق لهما مثيل ولقد كان (دبكلس) احد مهندسى ومؤسسى الرخـــاء الفرنسى فى تلك المناطق ولقد كان (دبلكس) هو حاكم منطقة (شاندارنجر) مـــن ١٧٣١ الى ١٧٤١ والحاكم العام لبوند شيرى من ١٧٤١ الى ١٧٥٤ .

ان الرسائل والمراسلات التى كان يبعث بها مديرو شركة الهند الشرقيـــة الانجليزيه فى القرن السابع عشر ربما تضمنت اشارات الى النفوذ السياسى فى الهند هــذه الاشارات كانت فى شكل آمال ورغبات غامضه ولكن أهميتها - فى ضوء التطورات الاخيـرة - أنها كانت تنبوءات سليمه ولكن (ديلكس) وحده هو الذى حدد لنفسه - بالتدريج ولكن بشكل فيه تعمد وتحديد - هدف اقامة ممتلكات فرنسية فى الهند .

وهكذا تحرك الانجليز مدفوعين بعامل الخوف من نجاح الفرنسيين كان لابد لهم من انقاذ تجارتهم . ولم يكن من الممكن انقاذ وحماية هذه التجارة - هكذا رأى الانجليز - اذا نجح الفرنسيون فى اهدافهم وعلى ذلك بدأ الانجليز - فى محاولة دفاع عن النفس - فى معارضة خطط (دبلكس) وكانت النتيجة قيام صراع تطور الى حرب ضد الفرنســيين خلال حرب الوراثة النمسوية وحرب السبع سنوات فى اوربا واستمر القتال رغم انه أخفى تحت المنافسة التى قامت بين الامراء الوطنين من عام ١٧٤٨ الى عام ١٧٥٦ عندما لم تكــن هناك حرب بين انجلترا وفرنسا فى أوربا .

وقد استدعى (ديلكس) في سنة ١٧٥٤ وهكذا خرج الانجليز منتصريـــن من هذا الصراع الثنائى الانجلو - فرنسى فى الهند .

وأسباب نجاح الانجليز ليس من الصعب معرفتها فأولا كان هناك عدد خطيـر من العيوب فى شخصية وعمل دبلكس نفسه . فبينما كان يخطط خطط مجيده للغزو والسيطرة فانه لم يقدر المشاكل التى كان عليه ان يقابلها تقديرا سليما . وقد كان دبلكس شـــديد

التفاؤل والامل بمطبعه • وقد انده هش من المعارضة الانجليزية لخططه وظل يعتبروها أمــــر تافـه • وكان أيضا قليل الاهتمام بالتجارة فعندما بدأ برنامجه السياسى والحربـــــى بدأت حركة الشحن الفرنسية تقل والتجارة تضعف •

ومن ناحية أخرى فان الانجليز استمروا يكسبون من وراء نشاطهم التجارى حـــتى فى هذه الفترة من فترات الحرب ولقد هدف دبلكس الى تحويل شركة الهند الفرنســــية من الدخل الهندى • وكان ذلك مثل وضع العربة امام الحصان • فان الدخل الهنـــــدى المنتظر لم يحدث ابدا وفشل دبلكس مرة اخرى فى اعلام السلطات الفرنسية فى فرنســـــا عن الاحوال الحقيقية بالهند فقد كان يوضح لهذه السلطات ان المعارضة الانجليـــزية ضعيفة وان الانجليز سوف يقبلون فى النهاية السيادة الفرنسية فى الهند • ولقد علمــت السلطات فى فرنسا بأخبار هزيمة (جاك لو) وسقوط (تريشنوبلى) للمرة الاولــــى من لندن وعزت ذلك الى التفاخر الفارغ والمشهور للبحارة الانجليز • ولكن سرعان ماخاب ظن السلطات الفرنسية وتحققوا من ان أمر الهزيمة صحيح • وهكذا قرروا استدعاء (دبلكس) نتيجة لمطلب السفير البريطانى فى فرنسا ولم يكن كذلك (كونت دى لالى) الذى وقعــت على اكتافه أعباء قتال انجلترا فى حرب السبع سنوات أو فى مستوى الموقف والطوارئ ومـــن غير شك فقد كان ضابطا ذو ضمير وهو عديم الميول نحو الفساد وجنديا أفضل من (دبلكس) ولكنه كان طائشا متسرعا وحاد المزاج وعنيفا ولا يراعى احدا •

وكان غير متسامح فى النصيحة حتى ولو جاءت من هؤلاء الذين كانوا يعرفـــون الاحوال المحلية أفضل مما يعرف ولذلك لم يتمكن من ان يتزع التعاون القلبى الكامل مـــن مرؤسيه • ولم يكن لديه صبر او قدرة على التفاصيل • واصبح الموقف شد سوءا عندمــــا طلبت منه سلطات باريس ان يقوم باصلاح النظام الادارى فى المستوطنات الفرنسية فـــى الهند ولقد كان لالى من الشعور بالمسؤلية بحيث أنه لم يستطع تأجيل مثل هذا الواجـــب الكريه حتى تنتهى الحرب • ويمكن ان نقول ان اختيار (لالى) ليكون الحاكم الفرنســـى

العام يمكن اعتباره العامل الثاني من عوامل الفشل الفرنسي أما السبب الثالث فقد كان الانجليز أفضل من الفرنسيين في الخدمة فيمن يعاونهم في مثل هذه اللحظات الحرجة لقد كان (كلايف) عبقريا فكان سياسيا حصيفا وجنديا باسلا وزعيما للرجال عظيم وقد كان هجومه واستيلائه على (أركوت) ضربة معجزة في الاستراتيجية الحربية واستمرار استيلاؤه عليها لمدة ثلاثة أشهر في وجه كثير من المصاعب أسس مهارته في القيادة ويبين سلوكه الحربي في (تريشونبلى) وبرة أيضا في (كلكتا) و (بلاسى) نوعيته كرجل وكقائد • ولقد كان (لورانس) و (كسوت) رجال وجنود ذوى امتياز ومقدرة في خدمة شركة الهند الشرقية الانجليزية وكان (سوندرس) الذي في مدراس كفئا ورجل مقدره وفهم سليم وادراك • اما (أورم) فقد كان بالاضافة الى كل ذلك موهوبا بقدرة كبيرة على بعد النظر •

السبب الرابع : للفشل الفرنسي والنجاح الانجليزي كان تعيين (بوساى) في منطقة الدكن • لقد كان على (دبلكس) أن يبقى اولا (مظفرجانج) ثم (صلابت جانج) على عرش الدكن • ولم يكونا ليستطيعا البقاء بدون قوة فرنسية قوية ولذلك ارسل (دبلكس) (بوساى) الى حيدر آباد على رأس عدد كبير من الجنود وهكذا تم بهذه الطريقة ابعاد أفضل قائد فرنسي من على مسرح الحركة والعمل • وانقسمت القوة الفرنسية ووقع عاتق محاربة الانجليز على ضباط من الدرجة الثانية وهكذا كان (بوساى) في شغل شاغل وبينما كان (كلايف) في البنغال مستمرا في مساعدة جهود الحرب الانجليزية في (الكارنات) بالرجال والمال لم يكن (بوساى) في موقف ليقوم بمثل ذلك •

اما السبب الاكبر والخامس : في النجاح الانجليزي والفشل الفرنسي فقد كان سيادتهم على البحر باستثناء فترة من الوقت قصيرة عندما تمكن (بوردونية) من لوى فقدان السيادة البحرية من (بيتون) الانجليزي وبالتالي كان قادرا على مهاجمة والاستيلاء على مدراس وبخلاف ذلك فان السيادة على البحر ظلت في يد الانجليز • وهذا مكنهم

من الابقاء على مواصلاتهم واتصالاتهم بالوطن ـ انجلترا ـ وبين مراكزهم ومحطاتهم المتعددة وعرقلة مواصلات فرنسا .

وهكذا ظل الانجليز فى وضع أفضل من حيث امكانيتهم فى التزود بالرجال والعتاد و الاسلحة نتيجة سلامة مواصلاتهم لسيطرتهم على البحر . وقد مكنت هذه السيادة على البحر الانجليز من نقل حشود جنودهم من غير قيود لتغطية العمليات الحربية البرية والحرمان الفرنسيين من تموينا تهم الهامة . ولقد كانت قواعد البحرية الفرنسية فى جزر بوربون وفى موريشوس فى المحيط الهندى مليئة بالعيوب فقد كانت بعيده جدا عن اليابس الهندى مما أعجزها عن ان تكون فعالة ومؤثرة مثلما كانت مثلا مدراس وبومباى بالنسبة للانجليز .

وهكذا مثلا نرى ان رفض (دى آش) للتعاون البحرى مع (دى لالى) أجل هجوم (دى لالى) المقترح على مدراس او هزيمة (دى آش) على يد (بوكوك) فى الاشتباك البحرى بالقرب من (كاريكال) فقد اضطرت الى رفع حصاره عن (تانجور) وأبحر القائد البحرى الفرنسى الى موريشيا (موريشوس) وفى غياب تعضيد من البحر فان حصار (لالى) لمدراس فشل بشكل مؤلم . من ناحية اخرى كان البحر تحت سيطرة الانجليز وفى الاوقات الصعبه كانوا يتلقون الامدادات من هذه الجهة .

وقد هزم (دى آش) مرة ثانية فى اشتباك بحرى ثالث ضد الانجليز واضطر الى الهروب الساحل ونتيجة هذا كانت هزيمة (دى لالى) فى (واندى واش) سنة ١٧٦٠ واستلمت (بوند شيرى) سنة ١٧٦١ بعد استمرارها فى البحر والبر

ولقد كانت السيادة على البحر ـ فى الحقيقة من اهم ضرورات نجاح النفوذ الاوربى فى الهند وكانت انجلترا تمتلك هذه الضرورة فى منتصف القرن الثامن عشر وأخيرا فان شركة الهند الشرقية ظلت وقتيت معتمده على تنظيمها فى ارض الوطن ـ انجلترا .

لقد كانت الشركة (مشروع ارتزاقى) يعزى وجوده واستمراره الى المجهودات والمشروعات الخاصة والنشطة • وبالمقارنه فان الشركة الفرنسية قد قاست من جراء هذه ـ السيطرة غير الطبيعية (والمودية بها فى النهاية) من جانب الحكومة وانشغلت فى حروب ثلاث فيما بين عام ١٧٤٢ وعام ١٧٧٣ •

ومجئ عام ١٧٦٣ كانت شركة الهند الشرقية قد أسست ودعمت نفسها كقوة سياسة وحربية فى البنغال والكارنات وفى خلال الفترات الاولى من فترات الصراع الانجلو ـ فرنسى ظهر الضعف الحربى للولايات الوطنية وهكذا كان كل من الانجليز والفرنسيين يتعامل مع أسلحة حرب هنديه وتكنيك حربى أقل كفاءة بمراحل كبيرة بمثيله الاوربى

ولقد جاءت الفرصة الاولى فى التحام الجانبين ـ التحام التفوق للجهاز الحربى الاوربى ضد جيش وطنى ـ على ارض معركة بالهند فى خلال حرب الوراثة النمسوية •

كان الفرنسيون قد احتلوا مدراس ـ وقد اختار نوابا نور الدين ـ نواب اركوت والذى كان قد شعر بان الاحوال فى منطقة وحوله لا تبشر بخير او أمان وان الاسلام يجب ان يعود مرة اخرى ـ اختار بناء على رجاء من الانجليز ـ ان يرسل لهم نجدة لمدراس ولكن النجده لم تصل الى هناك فى الوقت المناسب • ورفض (دبلكس) ان يسلم مدراس الى الانجليز او الى (النواب) وتقدمت جنود (النواب) لحصار مدراس وأملت ان تنتهى من الفرنسيين تماما وعندما شعر (دبلكس) ان هذا الحصار يضيق عليه الخناق فانه ارسل قوة تحت قيادة (لاثور) الذى تمكن من تشتيت المحاصرين وجعلهم يتراجعون الى (سان ثوم) وفى نفس الوقت كان كابتن فرنسى آخر (باراديس) يقود تعزيزات حربية وجد هذا الكابتن ان جيوش النواب تعترض طريقه بالقرب من (سان ثوم) تمكن (باراديس) من فتح طريقه وفرق وشتت جنود النواب فى اشتباك سريع وقصير مماثل لما فعله (لاثور) من قبل • ونتيجة لكل ذلك فقد انسحب النواب ثم بعد ذلك عقد صلحا مع (بوند شيرى)•

هاتين المعركتين القصيرتين كانا حدثين مهمين فى تاريخ الهند • لقد تقابلت القوى الاوربية والهندية وجها لوجه على ارض المعركة مرات كثيرة من قبل • ولكن لم يثبت الاوربيون بشكل طبيعى انهم كانوا اكثر تفوقا على الهنود • فمثلا لم يثبت القوات البرتغالية التى انضمت الى بهادر شاه الكجراتى فى جوبه ضد همايون ان فعالية أو أثره اما شاه جهان فقد هزم البرتغاليين فى (هوجلى) بسهولة كذلك انزل عالمجير عقاب شديد بشركة الهند الشرقية ولكن فى خلال حرب الوراثة النمسوية تمكنت قوات بسيطة من مجابهة وتحدى قوات اكثر منها عددا ولكن أقل نظاما من الفرسان الهنود وهى التى كانت لاتزال تكون الجزء الرئيسى للجيوش الهندية •

لقد تمكنت الجيوش الاوربية من تطوير فنها الحربى واسلوبها فى خلال سنوات قريبه خاصة حرب الوراثة الاسبانيه ومن ناحية أخرى فان جيش الامبراطورية المغوليـــة كان قد تضعضـــع وضعف •

لقد قل اعتماد الاوربيين فى حروبهم على الفرسان لقد حل المشاة الان محـــل فرق الفرسان كاساس الجيوش الاوربية •

وكان الفرسان يستخدمون فقط كقوات مطاردة للعدو وعندما تحل به الهزيمـــة والهرب او يستخدمون كقوات جانبية للحماية فقط • وفى ذلك الوقت لم تكن المشـــاه تقوم بتشكيلات حشد عميقة أنما كانت تنتشر بشكل حاد فى كل الاتجاهات وهذا ضمن استغلال حسن وسليم للقوات بشكل خطوط طويلة — وهو الشكل الذى يختلف عن الشكـــل التقليدى للحرب وتقليل فى الاصابات عند الاشتباك •

وبدأ المشاه الاوربيون الان يستعملون البندقية المثبت فوقها السونكى بدلا من أن يكون السونكى فيها بشكل غير واضح — كما كان الحال من قبل • وهذا مكن الاوربيـــين من القدرة على الاشتباك باليد اثناء القتال وفى نفس الوقت اطلاق النار • اما الهنـــود فكانوا لايزالون يثبتون السونكى فى داخل فوهة بنادقهم •

ولقد كانت قوات المدفعية الاوروبية اكثر تقدما من مثيلتها الهندية • وكانت مدافعهم مصنوعه من معادن أقل سمكا وكانت أقصر في الطول ولها فوهات متسعة بشكل يخالف المدافع التقليدية التي كانت تستعمل في القرن السابع عشر في كل انحاء العالم لقد كانت هذه المدافع خفيفة ومن الممكن تحريكها ونقلها بسرعة وسهولة وكانت يمكن ان تنطلق مرتين في الدقيقة وفوق كل شئ • وكان الاوروبيون قد ادمنوا واغرموا بالطلقات المتمدده التي تنتشر وتنزل بحشود الاعداء الدمار والقتل • اما المدفع الهندي فقد كان لا يزال على طرازه القديم • مصنوع من معدن ثقيل وسميك مسحوب وضيق عند فتحة الفوهة وكان ينطلق مرة كل خمس دقائق وكان الهنود لايزالون يستعملون كرات مستديرة صلدة •

واكثر من ذلك فقد كان المشاة الاوروبيين حسنوا النظام يحاربون في تشكيلات ويخضعون للاوامر حتى في اشد لحظات القتال عنفا •

وكنتيجة لذلك نجد أن القوات الاوروبية تتمكن من الحصول على انتصارات سريعة وملاحمة عندما كانت تشتبك مع فرق الفرسان الهندية •

بعد الاشتباكات خارج دوراس التي وصفناها من قبل نجحان (دبلكس) يهزم النواب مرة اخرى في (أمبور) ويهزم (ناصرجانج) فيما بعد ونجد (ملايف) يحقق نجاحا مماثلا ذا نتائج باهرة اولا في كلكتا) ثم بعد ذلك في (بلاس)•

ويمكن ارجاع نجاح بيجور (مترو) في (بكر) وانتصارات اخرى احرزها الانجليز ضد القوى المحلية المختلفة الى هذا التفوق التكنيكي في منتصف القرن الثامن عشر للتنظيمات والمعدات الحربية الاوروبية بمرور الوقت •

ولكن لماذا لم تتمكن القوى الهندية من مشابهة الامم الاوروبية في التطور التكنيكي مهما كان صغيرا — في القرن الثامن عشر رغم ان السؤال متصل بالموضوع اتصالا وثيقا

الا أنه من غير جواب . ولكن شيئا واحدا واضحا . ان قوة الدفع انتقلت بشكل مؤكد الى الغرب وهكذا بدأت تظهر الان ثمار امور كثيرة محركة النهضة الاوربية التي حدثت قبل قرون سابقة . من هذه الامور روح البحث والرغبة القوية في المعرفة والرغبة في القيام بالمغامرة والبحث والموقف العقلي الذي يرفض قبول الاشياء حولكما هي بدون نقاش ودوافع عقلية وثقافية أخرى ولم يتأثر الشرق بأي تيارات مشابهة أما الهند بالذات فكانت متعلقة بالماضي وباحترام التقاليد هذا الاحترام الذي ظل عبئا ثقيلا عليها وكان اهل الشرق قانعون وراضون إذا ماتحققت الامور حولهم بالشكل الذي كانت تتحقق به في عهود أجدادهم . مثل هذا الموقف الفكري من الصعب ان يحققوا اي نوع من التقدم . وفي المجال الحربي وفي وقت متأخر وحتى القرن التاسع عشر — نجد ان (رانجيت سينج) يأمر قواده بالتوقف عن الاعتماد تماما على الفرسان .

ومن الصحيح ان نقول ان الانقسام وعدم الوحدة في بلاط سراج الدولة وخيانة قوعدم ولاء ميرجعفر واصحاب البيوتات التالية من الهنود ومؤامرات كلايف الانجليزي كل ذلك عوامل معروفة ولكنها لم يكن من الممكن ان تؤدي الى نكبة بالحكم الاسلامي في الهند بدون التفوق البريطاني في التكنيك الحربي . فان الجيوش الاسلامية التي عارضت البريطانيين في (بلاسي) و (بوكسر) كانت منقسمة وغير متحدة وتمكنت (المؤامرات البريطانية من تدمير تضامن هذه الجيوش وكان الافتقار الى الوطنية والولاء ايضا من أهم الاسباب التي أدت الى الهزيمة . ومع ذلك فان الجيوش الاسلامية ربما كان بامكانها ان تتجنب الفشل لو كانت معداتها الحربية واستراتيجيتها بدون عيوب اساسية .

والبنغال في تلك الايام تكون بشكل تقريبي (بنجلاديش) اليوم وغرب البنغال وبيهار وأوريا وأجزاء من آسام ويمكن وصف الانتصارات في (بلاسي) سنة ١٧٥٧ على انه نقطة تحول عظيمة في تاريخ البنغال السياسي والاقتصادي .

لقد كان الحكم البريطاني للبنغال نكبة كبرى . لقد كانت البنغال في اواسط القرن الثامن عشر اقليم يتمتع بالرخاء وغني بالزراعة والصناعات . وكانت تجارته واسعه وقام التجار المسلمون والهندوس بنشاط تجاري واسع مع المناطق داخل البلاد ومع اراضي (مالابار) وسواحل (كورو ماندل) في شبه القارة الهندية . ومع تركيا وبلاط العرب وايران والتبت والصين واليابان وجزر الهند الشرقية وكانت الصادرات الرئيسية هي القطن والحرير المصنوع والحرير الخام والملح والجوت والسكر والافيون . وكان الميزان التجاري في صالح البنغال بشكل كبير . ولقد كانت الزيادة في الصادرات على الواردات تدفع في مقابل المعادن النفيسة وهكذا كان هناك فيض من الذهب في اقليم البنغال في النصف الاول من القرن الثامن عشر .

وقد ساهمت الشركات الاوربية في هذه التجارة فقد وجدوا ان قطن البنغال الممتاز خامته موصلين ركا يزداد عليه الطلب واعوه بكميات هائلة في الخليج الفارسي وموانى البحر الاحمر وقد وصادر هولنده للحرير الخام من البنغال بما توازي قيمته $\frac{3}{4}$ مليون جنيه في العام .

وكانت استثمارات شركة الهند الشرقية الانجليزية في صادرات البنغال عظيمه للغاية .

وكانت سنوات قليلة من الحكم البريطاني كافية لتدمير وتحطيم هذا الاقليم العظيم وأهله . وقد بدأ الاستنزاف على يد بعض (النواب) المقاتلين الذين كانوا يدفعون اموالا هائلة الى الشركة وموظفيها للاحتفاظ بعروشهم في البنغال وقد قدرت هذه الاموال والهدايا فيما بين ١٧٥٧ ، ١٧٦٥ بما قيمته خمسة ملايين جنيه استرليني وبعد منح (ديواني — يحق حق الاشراف المالي على الاقاليم) الى الشركة سنة ١٧٦٥ فان فائض دخل البنغال استثمر في صادرات الشركة وقد زادت هذه الاستثمارات في خمسة عشرة عاما على عشرة ملايين جنيه استرليني . وكان البريطانيون

أى المصادية الثمينه ـ تصدر الى الصين بكميات كبيرة وهكذا فى شكل او فى آخـــر نجد ان جزءا كبيرا من ثروة البنغال الى انجلترا •

اما موظفوا الشركة فقد كانوا ـ عندما تنتهى مدة خدماتهم يذهبون الى انجلترا ومعهم كميات هائلة من الثروات جمعوها فى مدة خدمة قصيرة وتمكنت شركة الهند الشرقيـــة من الحصول من الامبراطور على (فرمان) يسمح للشركة ان تكون تجارتها مع البنغـــال معفاة من الضرائب وبدأت الشركة تطالب باعفاءات من الضرائب حتى فى تجارتها داخــــل البلاد وكذلك كان موظفوا الشركة يستعملون تصاريح الشركة فى نشاطهم التجارى الخاص وكذلك بيعت هذه التصاريح الى التجار الهنود الذين كانوا يشترونها للتهرب مــــن الضرائب وهكذا كانت شكاوى سراج الدولة وميرجعفر بدون جدوى او نتيجة •

وقد حاربمير قاسم الشركة وفقد عرشه حول هذا الموضوع وهكذا بدأت شركـــة الهند الشرقية وموظفوها فى احتكار كل تجاره البنغال الداخلية وبهذا الشكل عملـــــوا على تخريب الاقليم وتحطيم التجار الهنود وعندما اكره المنافسون من الخروج من الميدان فأن الشركة كان الشركة تبيع سلعهم وتجارتهم حسب اسعارهم المتضخمة •

ولكى يضمنوا دائما وكافيا فان الشركة وموظفيها بدأوا يدخلون فى عقـــــود مباشرة مع النساجين ليزودهم بكميات محدده من طراز الاقمشة لشروطهم الخاصـــــة واسعار محددة تعلى ان تسلم فى مواعيد محدده وهكذا ونتيجـــة لتحديد وتثبيـــــت الاسعار فان قانون العرض والطلب لم يكن مسموحا له بالعمل • وقد اجبر موظفـــــوا الشركة ـ المسلحون بالسلطة ـ العمال المهره على توقيع عقود عمل بأجور متهافته لاتكفــــى لسد الرفق واضطروهم ان ينفذوا تعهداتهم • اما المهملون فعقابهم اما السـجن او الجلـــد • ولقد كان ذلك وسيلة مؤلمـــة للضغط والاكراه وقد حدد موظفـــوا الشركة انفسهم اجور العمال وقرروا نوع النسيج الذى كان على النساجين تزويدهم به وقاموا بعقاب اى مخالفة هذه الشروط وهكذا اصبح العمال فى الحقيقة عبيد وكان الهـــروب هو طريق خلاصهم الواضح • وبعض النساجين قطعوا اصابعهم بأنفسهم ليهربوا من

هو طريق خلاصهم الواضح وبعض النساجين قطعوا اصابعهم بأنفسهم حتى ليهربوا من هذا الطغيان . وهكذا تحطمت صناعات القطن والحرير.

واصبحت منافستصناع المنسوجات البريطانية بالتدريج قوية وقاسية وقد اصدرت الحكومة البريطانية قانونين في عام ١٧٠٠ وعام ١٧٢٠ قررتا عدم لبس واستعمال المنتجات القطنية والحريرية المستورده من الهند في انجلترا . ونتيجة لذلك فان المنسوجات البنغاليه كان يعاد تصديرها الى البلاد الاوربية حيث كان الطلب عليها متزايدا ولكن حروب انجلترا في اوربا في القرن الثامن عشر خاصة حرب الاستقلال الامريكيه التي تبعتها حروب الثورة الفرنسية ونابليون كانت حدا مانعا لاستمرار هذه التجارة وفي سنة ١٧٧٩ حدث هبوط شديد في صادرات البنغال من الاقمشة القطنيه الى البلاد الاوربية وفي سنة ١٧٨٠ وافق مديرو شركة الهند الشرقية على وقف استيراد الاقمشة القطنيه المطبوعه من البنغال لمدة اربع سنوات على طلب اصحاب طباعة القطن الابيض البرطانيين وقد مكن تقدم الثورة الصناعية في انجلترا واستخدام القوى في الات الغزل والنسج اصحاب المنسوجات البريطانيين من يقللوا من اسعار المنتجات الهندية في الاسواق الهندية نفسها .

وقد كان هذا ضربة قاضية للصناعات الوطنية الهندية وعلى ذلك فان الصادرات الهندية الى بريطانيا كانت تتكون فقط من القطن الخام .

ولقد عرقل سوء حكم السلطة البريطانية خاصة في فترتها الاولى في البنغال وعدم الاستقرار السياسي الذى نتج عن ذلك والافتقار الى رأس المال واحتكار التجارة والاعمال البنكية من خلق الظروف الملائمة لتشجيع حركة احياء او تحسن في مجال الصناعات .

ويوضح ايضا انتصار (كلايف) في (بلاس) سنة ١٧٥٧ - هذا الانتصار الذى نقل السيطرة السياسية في البنغال الى يد شركة الهند الشرقية ووضع بذلك اقليم البنغال في الطريق الى التحطيم الاقتصادى - يوضح هذا سياسة بريطانيا

فى الهند ونتج عن المؤامرة التى أدت الى هزيمة سراج الدولة وخلعه عن عرشه
ان تقارب الانجليز والهندوس • هذا التحالف الانجليزى الهندوسى ضد الحكم الاسلامى
السائد لم يكن حادثا عارضا ولم يكن حادثا قصيرا الامد •

لقد ظلت السلطة العليا فى شبه القارة الباكستانية الهندية فى يد الحكام المسلمين لمدة تقرب من سبع قرون وتمكنت الامبراطورية الاسلامية احيانا من توحيد اجزاء كبيرة من شبة القارة الهندية والسيطرة عليها من مركز واحد واحيانا أخرى انقسمت الامبراطورية الى وحدات صغيرة وفى الحالية فان الحكم الاسلامى قائما عرفيا والاعتراف به كان عاما وعميقا ولقد ظل الامبراطور المغولى فى دلهى — وهو بدون ثروة او قوة والعاجز عن تقديم الجزاء على خدمات او عن احلال العقاب بالمتمردين او مخالفى الاوامر — ظل فى القرن الثامن عشر حافظا لقدر هائل من العزة والانفة • والنصبداريه المسلمون الذين شيدوا لانفسهم امارات من بين حكام الامبراطورية التى كانت ذات يوم عظيم استمروا فى طلب الاعتراف بألقابهم من دلهى حتى فى الاقاليم البعيدة عن العاصمة مثل البنغال والدكن • وكان (النواب) المستقلون فى أود يفخرون بلقب (وزير) الذى كانوا يخلعونه على أنفسهم (ويعنى وزير الامبراطور) حتى الانجليز فى البنغال حتى عام ١٧٦٥ — وقد كان لهم كل السلطة — كان ونعمهم ينظمه منحه من الامبراطور وقد اجبر (مها راجى سندهيلا) الامبراطور شاه عالم الثانى على منح رئيسة (البشوا) لقب نائب الامبراطور • هذا هو ما كانت عليه عزة وسيادة الامبراطور المسلم فى منتصف القرن الثامن عشر والذى عندما حدثت ثورة مسلحة ضد الحكم البريطانى (الـراج) كان أنسب الاشخاص ليكون امبراطور دلهى وهو بهادر شاه العجوز والعاجز والذى لا حول له ولا قوة •

وفى المؤامرة التى انتهت بهزيمة سراج الدولة وخلعه عن عرشه كان اصحاب البيوتات المالية من الهندوس (طبقة السيث) هم المتصلون بذلك الشكل اساسى •

فقد عضدوا (على قردى خان) اما سراج الدولة فقد عاداهم ولقد انضمت اليهم بعض العناصر الناقمة فى بلاط (النواب) ـ أعنى سراج الدولة أفراد مثل (راى دورلاب) الذى أبعد من وظيفة (الديوان) ولقد اتصل المتآمرون بالانجليز بعد مشاورات فى جو من الحرص تحالفوا مع المتآمرين حسب شروطهم ولكن عندما بدأ البحث عن خلف لسراج الدولة ـ فاننا نجد ان المتآمرون كان عليهم ان يبحثوا عن مسلم ليشغل منصب (مسند) حاكم البنغال . وقد استبعد الهندوس وحتى لم يفكر احد فى اختيار واحد منهم اما (شوكت جانج) حاكم (بورنيا) فكان قد مات . وأما يار لطف خان فقد أوصى (الشيث) باختياره وفى الحقيقة اتفق الجميع بعد ذلك على ميرجعفر .

ومهما يكن من أمر أهمية وسهولة ميرجعفر للمتآمرين فانه ظل فى الواقع (الرئيس الشكلى) للادارة البنغالية . فقد كانت السلطة الفعلية قد انتقلت الى يد الانجليز واستغلت هذه السلطة لصالحهم ولصالح الحلفائهم الهندوس . ولم يكن (طلايف) بطيئا لاظهار دورة . فعندما اراد ميرجعفر ان يبعد (رام ناراليان) نائبة فى (بتنا) عن السلطة هو و (راى دورلاب) فان (كلايف) تدخل بقوة وتأثير ليمنع ميرجعفر من تنفيذ سياسته .

وهكذا ولد التحالف البريطانى الهندوسى منذ بداية السيطرة البريطانية فى الهند .

ولقد وجد البريطانيون فى الهندوس حلفائهم الطبيعيين ورأوا فى المسلمين اعداءهم الطبيعيون ايضا . ولذلك فقد كان الحكم الاسلامى وسيادة وكرامة الامبراطور المسلم هما الهدف المراد التخلص والانتهاء منه فى الهند . كان الانجليز يطأون على المسلمين اما الهندوس فقد عاشوا طويلا تحت سيطرة عقيده غريبه على الفلسفة الهندوسية وعلى قانون حياتهم . عقيدة شلت الحضارة الهندوسية المطاطة للابد فى استيعابها فى حظيرتها ولقد كان الهندوس نشوريين (اى يؤمنون بالنشور) واتفقت اهدافهم

مع المصالح الذاتيه للبرايطانيين • ومن عهد (طانيف) الى عهد (مونتباتن) يمكـــن لنا ان نقتفى أثر التيار الواضح البريطانيين فى الهند الموالية للهندوس والمعاديـــة للمسلمين • هذه السياسة صارت فى النهاية ... المسئولة عن الدمار الاقتصادى والفكرى والسياسى للمسلمين الهنود الذين لمدة تزيد على السبع قرون قد زودوا شبة القارة الهندية بالقيادة الفكرية والاقتصادية والسياسية •

وقد كانت السياسة التوسيعية البرية فى البنغال هى اول خطوة من خطـــوات الزحف الدائم والمستمر نحو نفس الاتجاه بالنسبة لشركة الهند الشرقية •

هذا الزحف كان سريعا فى خلال فترة حكم (ولسلى) و (لورد هاستنجـــز) و (دلهوزى) وان بنود واحكام قانون الهند الملتصق باسم (بت) رئيس وزراء بريطانيـا والتى تقرر ان (اتباع سياسة الغزو والتوسع فى السيطرة والتملك هو أمر ضد رغبة وشرف وسياسة هذه الامة فى الهند) •

هذا القانون ملحوظ وبارز لا لأنه نفـذ وأخذ به بل لانه خولف تمامـــا ولم ينفذ على يد شركة الهند الشرقية فى الهند •

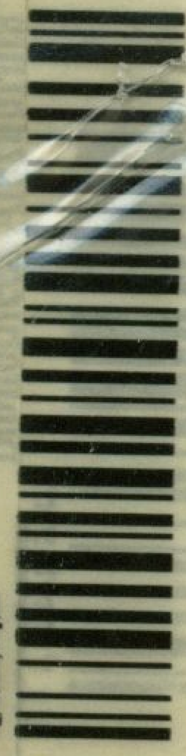
لقد كانت شبة القارة الهندية فى حالة تغير دائم فى احوالها ولم يكن هنــاك اى استقرار سياسى وقد لاحظ (دونوين لنجتون) فى محاولته ابراء مسلك موظفى الشركـة (أنه لم تكن اى حدود فى الحقيقة) ويصف سير (جون مالكولم) الموقف السياســـى بانه كان حيرة فى الاختيار بين التدخل والدمار •

هذه الملاحظات تهويل ومبالغة فقد كان الاغراء الذى سببه ضعف الحكام الهنود هو السبب الحقيقى للتوسع البريطانى • فقد ازدادت المسئوليات البرية للشركة بسرعة وبحلول منتصف القرن التاسع عشر نجد ان الشركة قد فرضت نفوذها على كل مناطق شبة القارة الهندية وبورمـــا •

وفى مجال دستور ونظام الشركة نجد تغييرا متوازيا مع مسئوليتها فى الهند • فعندما صارت الشركة قوة برية بدأت الحكومة البريطانية والبرلمان يهتمان بشدة بشئونها هـــذا الاهتمام أثاره بشكل اكبر تلك الثروات الضخمة التى جلبها موظفوا الشركة الى بريطانيـــا (وهم الذين رسموا فى كاريكاتير ووصفوا فى ادب القرن الثامن عشر (بالنابو) اى (بالنواب) اى الاثرياء الانجليز الذين عادوا بالثروة من الهند الى بلادهم) وسوء حكومتهـــم فى البنغال • هذا الاهتمام أدى الى توسع سيطرة الحكومة البريطانية التدريجى علـــى شئون الشركة وقد انتهى هذا الاتجاه بسرعة فى عام ١٧٨٤ بوضع كل السياسة الحربيـــة والسياسية للشركة فى الهند فى يد جهاز رسمى صغير فى لندن وهو (مجلس الادارة) •

وباختصار فان تاريخ شركة الهند الشرقية خلال هذه الفترة هو قصة استحواذ مؤسسة حسنة التنظيـــم وذات طاقة وكفاءة على السلطة وساعدها فى هـــذا الاتجـــاه عدم الاستقرار السياسى وضعف الهند المعاصرة والتطور والنمو العلمى فى أوربـــــا فيما يتصل بفن الحرب والجمود الفكرى للشرق والتفوق البريطانى فى البحـــر •

ولقد تلوث هذا الاتجاه بسوء حكم فظيع وإكراه وتعسف حلت بالســـكان الوطنين فى الفترة الاولى وكان هذا الاتجاه مميزا بعداوة شديدة — رغم انها طبيعيـــة — ضد الامة الاسلامية التى كانت من قبل مركز الحكم والقيادة •


Bibliotheca Alexandrina
0235204